الطوالع

دار الكنزي للنشر والتوزيع

الكنزي
ALKANZY

رئيس مجلس الإدارة
محمد صلاح شديد

المدير العام
إيناس الدسوقي

مدير الإنتاج
أحمد عبد الحليم

مدير النشر
مهند يحى

الكتاب : الطوالع
تأليف : سمير المنزلاوي
تصنيف الكتاب : رواية
إخراج : أحمد عبد الحليم
المقاس ١٤ × ٢٠
رقم الإيداع : ٢٣٦٨ / ٢٠٢٠
الترقيم الدولي : 978 - 977 - 6660 - 65 - 6

All Rights Reserved
Alkanzy for Publishing and Distribution
+01062104822
Alkanzy.co@gmail.com
info@alkanzy.net

محفوظة جميع الحقوق

الطوالع

رواية

سمير المنزلاوي

الحروف...

أمّةٌ من الأمم

كانت ساعة فاصلة في تاريخ شرشيرة، تلك التي قررت فيها أتان العمدة «مالك السكري»التي تدعى «كريمه»، أن تنسى برذعتها القطيفة وقوائمها المغسولة بالصابون، لتجنى لذتها المفقودة.

ساعة واحدة غفل فيها العمدة متفقدًا حديقة الموالح، واحتفى به خولي الأنفار فصنع له شايًا مُرًا ثقيلاً على نار الحطب.

جلس بقامته القصيرة وكرشه الذي يدفع الجلباب الأبيض إلى أعلى، وانسجم بملامسة الشاي الحار المضبوط لحلقه.

عند آخر رشفة هب ليعود لأعماله المتراكمة، احتقن الدم في وجهه بفعل حرارة الجو ولسعات الشاي، فصبغه بلون أرجواني.

رمش عدة رمشات كالقط المتأهب للقفز، لكنه فوجئ بركوبته الطاهرة عارية من برذعتها.

كان فمها منفرجًا على اتساعه ترتجف شفتاه بلا توقف، مستسلمة لحمار الحدايدة الجرئ، ليلقى قائمتيه الأماميتين على رقبتها، ثم يسفدها بحرارة.

هلّـل الحدايـدة لبهيمهـم عندمـا هبـط ظافـرًا فخـورًا ينـز ذكـورة، وسـحبوه ضاحكـين إلى جرنهـم يتشـمم الهـواء وهتفوا:

- صرنا أصهار السكاكرة.

فى لحظـة وقـوع عينيهـا عـلى العمـدة ركبهـا النـدم، وأدارت رأسـها.

تمنت أن يعذرها ويغفر لها.

ركل في لحظـة كل مـا يربطـه بهـا مـن عـشرة. وامتـلأ حقـدًا عـلى أيامهـا معـه.

لعلّهـا كانـت تزمـع الخطيئـة طـول الوقـت، مـا الـذي جعلـه يكاشـف تلـك الخاطئـة بمرضـه وتبرمـه بالزراعـة، وأنـه فكـر جديًّـا في بيـع كل شـئ والمغـادرة إلى الإسـكندرية، في بيـت يـرى منـه البحـر؟

خانتـه وقـصرت رقبتـه أمـام الـكلاب الحدايـدة، وجعلـت صيـاح فرحهـم يطعنـه في صـدره بـكل غـل.

لم يتمهل ليستخدم عقله.

لا وقـت ولا رويَّـة ليفكـر. كان في تلـك اللحـظ مشـتعلا بالغـرور والانتقـام.

لماذا آثرها إذن على سيارته «التيوتا كرولا «وسائقها المنتظر دائمًا؟

أيكون ذلك جزاؤه؟

كم همس لها أن العمدة- في نظره- ليس غير جلباب أبيض وعمامة صغيرة وركوبة رشيقة مثلها، ومظلة بيضاء وخفين ساذجين في القدمين.

استل خنجره المسموم من جرابه الجلدي المثبت على بطنه دائمًا تحت الجلباب، كانت رأسها ما تزال فى الاتجاه الآخر،

بقر بطنها فاندفعت أمعاؤها تتلوى على الأرض، وخرج من حلقها أنين متقطع ثم صمتت.

هدأ قليلا وجاء الخولى يجرها، لكنه عندما نظر إليها وهى تبتعد وجد فمها مفتوحا كما كان ساعة لذتها.

بصق في الهواء بصوت عال ومضى بعيدا.

أحضروا له ركوبة أخرى عاد بها مصدوع الرأس، مسح عرقه عدة مرات وضربها بلا توقف بالخيزرانة التي لم يستعملها أبدا مع الراحلة.

عندما مر فوق الكوبرى الرابط بين المزارع والقرية، لم يجد رغبة في الاشارة بالتحية لنفر من الجالسين، كما يفعل دائمًا كنوع من التواضع.

سمح لبعض الندم أن يخامره حين نام، لأنه لم ينتبه لشهوتها عندما كانت تجلد الأرض وتصرخ فى جوف الليل.

لعلها سكرت بذلك العطر الفاسق المنبعث من أشجار البرتقال، لم يترو حين اختار للمسكينة ذلك الاغتيال العنيف، كان يمكنه قتلها صبرًا بلا طعام أو شراب. طرد بوادر الحنان ولف رأسه بالشال لينام.

سمع صوت أخته العانس تصرخ في أطفاله، هز رأسه حتى لا يقارن بين صراخها وصراخ كريمة، ورفض أي أفكار تقترب من أخته وهمس لنفسه:

- ركوبة حقيرة

***

اتفق أغلب السكاكرة على الاكتفاء بقتل الحمار، فيلحق بشريكته.

سيقت لذلك الاتفاق تبريرات، تدور حول حقن الدماء وعدم السماح للحقد أن يتصور في شكل بنادق ومسدسات وخناجر.

لا يستطيع أحدهم أن يجهر برأى فى مواجهة العمده، ورغم ذلك يشفقون على العائلة من شطحه.

تعلقت العيون بفمه، فتربع على الكنبة.

برغم النافذة المفتوحة والمروحة المثبتة فى الحائط، فان الصهد الآتى من بين زحام البيوت يتغلب، ويجلب العرق والضجر فيتململ البعض ويهز الآخرون أطواق جلابيبهم، ويحركون العمم والطواقى.

الآن تتمتع المساكن الجديدة على الجسر بنسيم الزرع والشجر، لكن المنادر لا يمكن أن تنتقل وراء العمال والمغامرين والعامة والدهماء،

لا مفر من بقائها هنا فى صرة القرية تعانى الفيح، ففى تلك المجالس ترددت كلمات وأنفاس عزيزة، وعلقت صور ستبقى حتى لو تداعت المبانى القديمة ثم جددت على أحدث الطرز.

تركزت عيناه على حذائه اللامع، ثم جذب شلتة من خلف ظهره ووضعها تحت كوعه، من الوضع مائلا،

قال بهدوء ما لبث أن صار شظايا من الغضب:

- ليس مالك السكري الذي يقتنع بحلول النساء تلك، الولد الذي قاده إليها، يوضع فى بطن البهيم ويحرق.

عاشت حرب «كريمة «عامين، وحفظ الناس قصص القتلى و ترتيبهم وأماكن وجود جثثهم-حيث نبتت من دم كل فقيد شجرة حنظل، نمت بسرعة مخيفة.

كان « مالك «نفسه من أوائل الذين سقطوا فى الأتون. ظلت أشباح الضحايا هائمة، تفزع الناس فى الأجران والمراوى والبيوت ليلا ونهارا.

بل وصل بهم الشوق إلى الحياة حدا جعل الكثيرين من الصيادين يرونهم معهم فوق المراكب.

كادت العائلتان القويتان تختفيان من الوجود،

إلا من الشيوخ والأطفال والنساء السابغات السواد واللائي لا يكففن عن الذهاب إلى المقابر المرعبة فى طريق القناة ليندبن قتلاهن، فتقع مواجهات حامية بالأحذية والطوب.

قال جاد الله شعبان- الموظف بالوحدة المحلية وشقيق جابر القوى- لنفسه في الجنازات المتعاقبة:

- إن حالات الموت الذريعة تعدت الحدود المعترف بها في غير أوقات الأوبئة والجوائح، هؤلاء القتلى يمثل كل

منهم كارثة اقتصادية ونفسية، فلو حسبنا تكلفة غذاء الشخص وكسائه وتبغه وريه لمدة ثلاثين عامًا في المتوسط، لأدركنا أنها تتجاوز مائة ألف جنيه.

ومن واقع قراءاته فإن القتيل غير الميت، فالأول يحتاج طقسًا محددًا ليستريح ويريح الآخرين من تدخلاته المتكررة.

كان جاد الله متشوقًا لنبش مقبرة مالك السكرى نفسه كبداية للتطهير، وسلبه ثروة من تلبيسات الأسنان الذهبية عيار ٢٤، إلا أن قلبه ما يزال فى حاجة ماسة إلى تدريب شاق.

أمَّا يما يخص موتى الفراش الطبيعيين، فلابد من الاستفادة من موادهم الأوَّلية، كالشعر والأسنان والعظام، لصناعة أدوات نظافة وسماد وأجهزة تعويضية.

وليدع أمر استخدام اللحم الغريض لمرحلة متقدمة، تحتاج إلى إقناع وتوعية وتغيير طويل في السلوك والمزاج العام.

***

آخر القتلى هو الشيخ الطاعن سعد السكري.

كانت القاتلة سكينة ابنة الحدايده، الفتاة البكر التى تبّخرت فى الهواء.

ولأن قيام المرأة هنا بالقتل فلتة لا يُقاس عليها، فقد قيلت فى سكينة أغان ونظمت أمثال امتلأت بالمتناقضات التى تحدث فى أوقات الانقلابات.

فهى بطلة لا لشئ سوى قدرتها على التخفى، والشيخ سعد رجل خائر لم يصمد أو يهرب.

فتح التحقيق لأول مرة في النقطة الجديدة على يد المقدم حلمي شبانه، أول ضابط بعد إلغاء العمودية.

وكانت فرصة له أن يتعرف على جابر القوى كشخص عجيب يتحدث بالألغاز، ورغم أنه أول من وصل إلى جثة الشيخ سعد، فلم تزد معلوماته عن أنه حمله من أعلى إلى أسفل، وبدا أنه قرير العين لامتلاكه جسدًا مفعمًا بالقوة التى يتندر عليها الأهالي، ويستغلونها أيضًا فى ساعات صفائه، ربما لحمل ثلاجة إلى الدور الأعلى أو حفر أساس أو حتى هدم بيت.

يتعجب المقدم حلمى من مولد الصداقة بينهما ونموها يومًا بعد يومٍ .

سعد السكري رجل طلّق الدنيا فلم يعد يتابع ما يجرى، وليس له فيها ما يحرص عليه فلم ينجب بتاتًا، أجر أرضه وعاش بين البيت والجامع القديم.

يؤذن فوق المئذنة المملوكية العتيقة ولا يحب أبدًا استخدام مكبر الصوت المُعلّق فوقها.

ظلت هواية جابر أن يرقبه حين يمط رقبته ويدور في الشرفة ليوزع الأذان بالعدل.

تعجب كثيرًا من قدرة صوته رغم نحالة جسده على الوصول إلى الاحياء البعيدة.

فى الليالي الصافية التي يقضيها في البحيرة وحده، يتوهم سماعه قادمًا على جناح الريح من شرشيره، يجعد وجه الماء.

آخر نداء له كان في فجر طري، لاعبت جلبابه نسمات مسافرة مرت على ماء البحر ثم البحيرة.

أحس بالراحة والسلام ينبعان من قلبه، ووضع يده وراء أذنه ليوقظ الغارقين في النوم:

بداية الأذان تكون من نصيب حي الصيّادين ببيوته التي لا يكاد يشمخ منها غير تلك

المملوكة لأصحاب حلقات السمك.

الرجال غالبا غائبون لا يأتون إلا في نهاية اليوم فيسهرون فى مقهاهم الخاص بهم.

الأمهات وزوجات الأبناء والبنات المراهقات والأطفال والعجائز يسمعونه، فيحركون شفاههم بالدعاء للذين سرحوا وراء الرزق المختبئ تحت الماء:

-يا رب يا رحيم، يسر لهم وأعدهم غانمين.

دعاء المراهقات بلا صوت:

-يا رب ارزقني بابن الحلال.

الغلمان يسمعون فلا يهتمون كثيرا، لكن أرباب المدارس والجامعات يخفون للصلاة كلما اقتربت الامتحانات.

في الصيف يلحقون بالآباء هناك في المحيط المائي الذي تخلق منه حياتهم. اللسان الرطب صمت فجأة في وسط الأذان، لأن سكينه ابنة الحدايدة اختارت أن تثار لأبيها وأخيها من الشيخ النقي كالثلج.

وقد باغتته بطعنة سكين في خاصرته كأنه أتان العمدة الخائنة.

بعد أن تهاوى على أرض الشرفة أدخلت يدها بكل جسارة في سروالة وأنزلته فى قدميه وامتلخت خصيتيه.

لاكتهما قليلا ثم ابتلعتهما وزغردت زغرودة مدوية ألقت بالنائمين على مقربة منها إلى خارج الدور.

وصل جابر القوى أولا لأن البيت في مواجهة الجامع، ودائمًا ما يحصل على البركة كلها من فم الشيخ سعد.

لقد رفع رأسه من فوق الوسادة منذ الكلمة الأولى مرتابا كأن نذيرًا في قلبه نبهه إلى شئ خارق سيحدث.

احتضن القتيل وهبط به مائة وعشرين درجة.

الدم يشخب من عدة أعضاء، ونصفه الأسفل الذي عرته سكينه يظهر فيه خرقان منكران بدلاً من البيضتين.

عندما استيقظت شرشيرة كان كل شئ قد انتهى.

وفى غمرة حزنه على صديقه المبارك، قرّر أن يرفع الأذان من بعده، وهى خاصية ينفرد بها، تجعله يتجاوز لحظات الخوف ويبادر إلى خلق موقف جديد.

لن يصعد المئذنة ويدور مع أركان الشرفة، سيكتفي بمكبر الصوت.

تسلل إليها من قبل عدة مرات، تتبع الدرجات الخشبية الحلزونية الملتفة حول عمود من الطوب.

ثمة رائحة عطانة تملأ المكان، رأى شرشيرة من الشرفة الخشبية كلعبة أطفال، لكن قدمه اصطدمت بشيء دبق، وجده بقايا فأر جلبته الغربان.

***

مالت المئذنة ميلا ملحوظا عقب مصرع سعد السكري بأيام، وقيل إن الجمادات تدرى بما يجرى، وتحب وتكره.

امتلأ العمود الذي يحتضن الدرجات بالشروخ.

وبدأت قطع الملاط المتكلس تسقط بلا هوادة كأنها شهب تحصب القرية،

الأعيان والموظفون والمحامون والأطباء أفتوا بخطورتها وحتمية إزالتها، خاصة أن مجلسا كثيفا يلتئم تحتها بعد صلاة العصر.

هنا يمدد البعض أرجلهم ويرتق الصيادون شباكهم في ظلها بالمناقيش البوص، وترتفع الضحكات والحكايات.

الشيخ الشحات شيخ الجامع رفض تماما فكرة الهدم،

فالمئذنة في رأيه ليست بناء يتداعى.

إنها ابنة ذلك المسجد وسبابة شرشيرة المتجهة نحو الله.

قال ان نصب مئذنة فى العصر المملوكي كان أمرا جللا، فالمكان يختار بعد رصد دقيق للنجوم، وفى القاعدة والأساس تدفن أوراق لحماية البقعة.

قال جاد الله شعبان عندما وصلته الفتوى:

-هذا سخف، الكعبة جددت في الجاهلية، ولم يحدث شيء. ثم إن معمار المآذن ليس إسلاميًّا، وبلال كان يؤذن فوق السطح.

بينما يحتدم جدل فقهي وتاريخي وخرافي، سقطت رأس المئذنة فمات سبعة رجال وارتمت الأنقاض في صدر المجلس.

لا يمكن لمخلوق أن يشعر بالحوادث ويصل إلى موقعها قبل جابر.

وكما احتضن سعد واصطبغ جلبابه الأبيض بدمه ورأى خرقيه المنكرين، انتشل وحده سبعة من المشدوخين، واحتضنهم منحيًا كل من اقترب، وخضع الجمع لقوته الخارقة فوقفوا بعيدًا. ولدى خضوعه للتحقيق لم يكن لديه سوى نفس الإجابة وبنفس الرضا عن أفعاله:

- حملتهم من تحت المئذنة إلى سيارة الإسعاف.

وفى منـدرة الحدايـدة قـال جـاد الله لبعـض الشـباب الذيـن قبلـوا قـراءة مـا أعطـاه لهـم مـن كتـب، وتشـوّقوا للمزيـد:

أصبـح القتـلى فى شرشـيرة يتفوقون،عمـن خرجـت أسرارهم الإلهيـة فى الفراش،

وتُعـد أرواحهـم المشرّدة خطـرًا داهمًـا، إذ لا تُعتـبر فى عِـداد الموتـى ولا الأحيـاء، وهـذه المنطقـة الغامضـة مـن الوجـود تؤثر عـلى مجريـات الأمـور، وتبـث أمراضًـا غـير معروفـة، وتفسـد النـوم والأحـلام.

قـرأ أيضًـا أن مُدنـا قديمـة كانـت تلجـأ عقـب الحـروب إلى تجريـف المقابـر وحـرق العظـام بعيـدًا، مـن أجـل راحـة الباقين.

أدرك ببصيرتـه الثاقبـة أن أشـجار الحنظـل الكئيبـة، تمنـع البركـة وتمحـق المحاصيـل وتثـير الإحـن وتقتـل المـروءة.

لم يستطع أن يبوح بكل هذه المعارف، واعتصم بالصبر.

ابتعـد النـاس عـن المئذنـة، واحتجـزت الأمهـات أطفالهـن الذيـن كانـوا يعمـرون الباحـة طـول اليـوم، يلعبـون البـلى والنحـل والعقلـة، ويتشـاجرون ويتنابـذون.

أرسـلت الأوقـاف رجـلاً قصـيرًا مدكـوكًا ضيـق العينـين، لا يـكاد يرمـش، صامتًـا إلا في أوقـات نادرة،يخـرج منـه بغتـة غنـاء

عجيب لا يفهمه أحد، لكنه جذاب يجبرك على التوقف.

أقام سقالة عريضة كالحجرة حول بقايا البناء يصعد إليها بدرجات محكمة، وجلس يهدم بهدوء بالأجنة والشاكوش.

تتساقط قطع صغيرة تحت قدميه ودائما يرمقه من بعيد بعض العاطلين والفضوليين بينما لا يلقى بالا ولا يرد على مجرد التحية.

في اليوم الثالث وبعد دقائق من شروعه في الهدم البطيء،حومت بومة خضراء كبيرة فوق رأسه، ثم هبطت خلفه فوق الأطلال المدببة وبدأت تنعب كما تصرخ المرأة المكلومة.

نسى الغريب ما كان يغنيه منذ لحظات وهبط على درجات السقالة إلى الأرض، ثم حدّق في الطائر الذي جذب الناس من البيوت والدكاكين والمقاهي.

أستجمع قوته بعد قليل وضرب كفيه قائلا لنفسه بصوت عال:

-لقد حذروني من هذه القرية، لكنني لم أكن أتصور كل هذا الرعب.

حـاول الواقفـون طـرد الشـؤم، فانهالـت عليهـا الحجـارة والطـوب والأحذيـة القديمـة،

ورغـم قربهـا مـن الأرض بعـد انهيـار رأس المئذنـة وشـيئًا مـن صدرهـا، لم يصبهـا أذى، وتسـاقطت القذائـف خلفهـا وأمامهـا، بينـما تهـز رأسـها بـلا وجـل.

***

انطلـق الأولاد إلى حقـل أحمـد القبـلاوى صائـد الطيـور مضحـين باللعـب مـن أجـل حمايـة بلدتهـم.

أخبرهـم أنـه سـمع البومـة مـن مكانـه عـلى الحـدود بـين شرشـيره وعزبـة معاطـى. ظنهـا إحـدى البومـات السـوداء التـي قـد تظهـر نهـارًا في حالـة الجـوع

أو الشوق إلى الذكر.

لكنهـم قالـوا إنهـا خـضراء كالـزرع العفـي، ولهـا طـوق أسـود فاحـم وهـى تقـف الآن فـوق خرائـب المئذنـة.

هـز شـفتيه كـما يفعـل قبـل أن يتكلـم، واسـتغرق لحظـات حتـى اسـتراح إلى جملـة قالهـا:

-عالم الطيور لا يكف يا أبنائي عن الإتيان بالعجائب.

شعر أن شرشيره تحتاجه، فغسل يديه من القناة ولبس الجلباب.

تناول البندقية التركية التي يصطاد بها اليمام والعصافير والزرازير وأجل جلسة حميمة مع أصدقائه فى عزبة معاطى.

عندما تصل أول موجة برد من بلاد أوروبا، يصطحب رفيقته التركية ويعلق حقيبته القماشية متجهًا إلى البحيرة.

لديه قارب مخفي في قلب البوص، يتفحصه ويشق به الماء ليعود آخر اليوم محملا بحبال البلبول والشرشير والظيّ والغر

والويب وديك البردي، يضع بضاعته في مكانها المعهود بجوار المدرسة الابتدائية.

أوسع خطواته وجرى الصغار خلفه يلهثون وجلابيبهم

في أفواههم وبين الفينة والفينة يتوقفون لجنى نباتات السريس والجلوين وسحب زهرات البشنين من قاع الترعة،

ثم يحشون بها أفواههم ويعاودون الجرى ليلحقوا به، شغله التفكير فى الطارئ فلم يبحث عن حمام برى أو عصافير دورية مهاجرة فوق الأشجار.

مـر عـلى حنظلـة محنيـة السـاق تـكاد تسـقط، نظـر فى الناحيـة الأخـرى واسـتحث سـاقيه عـلى الهرولة.

قال لنفسه حين اقترب ورأى المشارف المغلفة بسراب الظهر:

-الحمـد لله أنـى موجـود في الغيـط ولسـت في البحـيرة، حتـى لا أحـرم مـن تأديـة واجبـي.

هاجمته فكرة عكرت دمه وكاد يتراجع:

لمـاذا يسـتدعيني مجموعـة غلـمان لهـذا الأمـر الخطير؟هـل هـذا مقامـي؟

لأتنـازل قليـلاً عـن حساسـيتي، عندمـا أصرع تلـك البومـة سـيعرفون مـن أنـا، كان الغريـب جالسًـا في ركـن يقـاوم حيرته، ويهمـس لنفسـه:

-بومه في وضح النهار تصرخ، ولا تعبأ بشئ؟

بدأ القبلاوى مهمته بإشارة حازمة، وهزة من شفتيه وقال:

- شـكر الله سـعيكم، لكـن التصويـب الحقيقـي ليـس مـن شـئون العامـة.

سـحب مقدمـة البندقيـة إلى الخلـف، فبـدا ثقـب التعمـير عميقـا متحفـزًا.

دسّ أصبع البارود في مكانه فغاص توا، ثم أعادها إلى وضعها الطبيعي.

أغمض عينه اليسرى وركز حدة بصره كلها في اليمنى ثم أطلق بلا تردد.

فتح عينه ليرى بالاثنتين ريش تلك العدوة يتناثر في الهواء، متزامنًا مع سقوطها السريع تحت قدميه.

لكنه رآها ثابتة في مكانها، وارتفع صياحها يصم الآذان.

اهتزت أعصابه، كما اهتزت أعصاب المتفرجين، وعرضت أذهانهم صورًا متتابعة لعمليات إعادة العضو الذكرى لعدد معتبر من الرجال،

فقدوه إثر نزاعات مع عشيقاتهن، ولسعد السكري ولسكينة المختفية ولمياء زوجة جاد الله الساخنة، ولسعيد الزقلوط، وتيقنوا أن لحظة حساب شرشيرة على آثامها حانت.

هلّل الصغار استهزاء بالقبلاوى، فسبهم ووجه إليهم بندقيته، فازداد هياجهم، وتحول بعصبية إلى الناحية الأخرى وقام بنفس الأفعال.

نفضت جناحيها ونظرت إليه متحدية وساخرة، أدرك أن سمعته كصياد محترف تلوثت، لم يجد من سبيل سوى الصعود إلى سطح مجاور.

صـار متمكنًـا منهـا للغايـة، وجّـه إليهـا آلتـه التركيـة وأطلق بكل ضراوة،

لكـن الطلقـة طاشـت أيضًـا هـذه المـرة فهبـط ونكّسـها إلى الأرض ثـم مـضى في اتجـاه الحقـل يكلـم نفسـه:

-أقسـم أنهـا ليسـت بومـة حقيقيـة، ليـس حجمهـا حجـم بومـة ولا لونهـا كذلـك.

عـاد إلى عزبـة معاطـى وقـد تحركـت بطنـه بعنـف، فاضطـر إلى إفراغهـا فى حقـل طماطـم وعانـى إسـهالاً بقيـة اليـوم، لا يجـوز أن أستسـلم هكـذا كطفـل، أيـن ثبـات الصيـاد ؟ وبينـما يتنـاول الغـداء مكروبًـا، حكـى لرفاقـه مـن مدمنـي الصيـد حكايـة البومـة التـى تحدتـه، وهـب أحدهـم يريـد الذهـاب إليهـا ملهوفـا:

-لم يخـب تصويبـي مـرة واحـدة، وأنتـم تعرفـون كـم أسـقطت بطـات يطـرن عـلى إرتفـاع شـاهق بأقـصى سرعـة.

أجلسه القبلاوى وقال بحرارة:

- كن بعيدًا يا صديقي عن هذا الأمرز

- لم تكن تلك الواقفة تنعب، بومة على الإطلاق.

***

كان جبر المخبر قد أنهى نوبته في النقطة الكئيبة، وسمع كلمات قاسية اعتادها من المقدم حلمي، واتخذ طريقه إلى حيث يركن التكتك بجوار الجامع.

بعد قليل سيتحول إلى سائق وينسى عمله المقبض الذي يكرهه من أعماق قلبه.

لعلّه السهر المتواصل هو ما يجعله دائمًا معتل الأعصاب، حتى أنه يخشى على نفسه من ذلك، ويحاول بعزيمة حديدية أن يتحمل سخافات الزبائن.

حين اقترب اصطدم بالجمع، وحانت منه التفاتة إلى بقايا المئذنة أدرك سبب اللغط.

بومة خضراء يتردد صدى صوتها في الحقول الشمالية حتى عزبة معاطى وفى الحقول الجنوبية البعيدة ويصل إلى حي الصيادين أبعد الأحياء، ومن بعده تبدأ قناة آتية من النيل الغربي لتغذى البحيرة.

نظر إليها مرة أخرى فوجدها قد تحولت إلى لمياء زوجة جاد الله.

كانت تضحك وقد وضعت ساقا فوق أخرى، وبدا نصفها السفلى عاريًا.

ارتجف وكاد يسقط لأنه فشل معها الليلة الماضية ثلاث مرات، لعن المغازى الصيدلي المحتال.

أخرج مسدسه وأراد أن يقتلها، لكنه تذكر المقدم حلمى وأعادها إلى جيبه، فعادت بومة كما كانت.

انتظر الناس قراره الذي يمثل قرار الحكومة، فشرع في الاتصال بالمقدم، ثم تراجع أيضًا واستعاد كلماته المُرة:

-ألا تتصرف مرة واحدة بدون الرجوع إليَّ؟

انتصب وقال بلغة رسمية:

-ضعوا لها كتكوتا محشوا بالسم.

ثم أسرع بساقيه القصيرتين كإوزة مذعورة.

قصَّ على زوجته تحولات البومة، فزارت زوجة جابر شعبان- شقيق جاد الله- ليلاً وأعادت عليها القصة.

وقبل أن يخلد جابر إلى النوم استمع إليها أيضًا، وظلَّ يقلبها على عدة وجوه:

- هل يكون ابليس هو من يلعب معنا ألعابه السخيفة ؟

***

في صلاة الفجر وجد المصلون أمامهم الشيخ الشحات آيبًا من مولد السيدة نفيسة.

بدا سمينا بعض الشيء، مرتد جلبابًا من الصوف الأسود رغم احتفاظ الصيف ببعض قوته.

قصوا عليه قصة البومة وكاشفوه بخوفهم من خطر محدق.

عقب الصلاة جلس وطمأنهم بقوله:

- ليس للتشاؤم أصل في الشرع،

ولتعلموا أن البومة كانت من قبل ترتاد البيوت والقصور وتأكل مما يلقى الناس إليها وتطير نهارًا.

وعندما قتل الحسين عليه السلام هاجرت إلى الخراب وقالت:

- بئس الأمم أنتم، قتلتم ابن نبيكم، ولا آمنكم إذا على نفسي.

تنفس الناس بعمق وتراجع رعبهم إلى الخلف عدة خطوات، فواصل:

-هذه المظلومة المتهمة بالنحس، تحمل في كل جارحة شفاء من أمراض بني آدم:

فبيضها المشوي في الرماد يوصف لتقوية الرؤية الليلية، وإذا أكل نيئًا يوصف لمريض السكر، أما دهنها المغلي فيشفى

مـن الفالـج، ودمهـا المخلـوط بالزيـت يعالـج صئبـان الشـعر، وحوصلتهـا المطحونـة مجربـة للمغـص القولـوني، ومرارتهـا نافعـة للتبـول الـلاإرادي، ولحمهـا يقطـع الشـقيقة ويقـاوم سـم الأفاعـي والسـعال والحكـة وعضـة الكلـب المسـعور.

ثم تذكر شيئاً فقال:

- ومهما يكن من أمر فقد حذرت من هدم المئذنة

- لكنها سقطت فوق الرجال وقتلتهم

-سـقوطها نفسـه رسـالة، لكنكـم لا تفقهـون، كان أجـدى أن تـترك بقاياهـا وتقـام الجديـدة بجوارهـا، وحينـما تأتـى فـوق أطلالهـا بعـد صـلاة الظهـر سـيكون لي معهـا حديـث.

عندمـا أتـت ونعبـت، جـاء مـن عمـق المسـجد بجسـده الـذي ثقـل وعينيـه الواسـعتين المرهقتـين مـن سـهره في الموالـد.

نظـر إلى أعـلى نظـرة واسـعة آلمـت جفنيـه، وخلـع جلبابـه الثقيـل باقيًـا بالصديـرى والـسروال.

ثـم تحامـل عـلى نفسـه وصعـد درجـات السـقالة الخاليـة حتـى صـار بجوارهـا تمامًـا.

لم تجفل واستمعت إليه وهو يهمس لها ببعض الكلمات.

مطت رقبتها وغمغمت، فبادلها الغمغمة وصاح الواقفون مهللين، تجاهلهم واستمر الحوار الخفي بينه وبينها.

رآها الناس بها بعد قليل تطير في اتجاه غابة النخيل.

بادره صياد الطيور سائلا:

-ماذا قلت لها يا مولانا؟ وهل سترجع؟

- لن تعود، لكنها ستقابلني لمدة عشرين يومًا، تمليني خلالهم طوالع أهل الحل والعقد في القرية، ومن يرتبطون بهم في المصائر.

هز القبلاوى رأسه كما يفعل فى ساعات الأسى، فهو لا يثق مطلقا فى ذمة الشحات، وخاطب نفسه هازا شفتيه:

- هذه الدنيا لا تجيد توزيع الأدوار .

***

أمالي البومة نسجت ضمن ملابس شرشيرة الداخلية الجديدة التى تتكون من:

حرب كريمة، وهبوط زوجة المغازى الصيدلاني من دمنهور، كصخرة تدحرجت من جبل لتداهمه مع ولاء زوجة جاد الله، وتجذبها من شعرها لتمسح بها البلاط.

ولاء لم تكن منهارة لتستسلم،بل اشتبكت بكل عافيتها واتزان أعصابها، ألقت غريمتها أرضا وكتمت فمها، وأشبعتها لكما وركلا، ثم انصرفت .

لم تجد الزوجة المطعونة سوى زوجها فضربته بالشبشب، ثم ذهبت وعادت بثلاثة أولاد وبنت.

أقامت معه في الشقة، ولم تصدق زوجة جبر التي أخبرتها أن ولاء مسكينة تنام مع أذان العشاء في أحضان أطفالها، وأن الشيطان نفسه يتنكر في صورتها.

البومة اتفقت مع الشيخ الشحات على إملائه ملاحم شرشيرة ليتسلى بها، لأنه الوحيد الذي قدر حزنها على المئذنة، وصعد إليها ليواسيها ويحدثها حديث الأصدقاء، بينما حصبها الباقون بالبارود والحجارة، بل ودسوا لها كتكوتا محشوًّا بالسم.

لم تنس أن تشيد بموهبته فى الحكى وأن شابًا من نسله سوف يعلو كعبه فى كتابة الرواية، وربما فاز بجائزة عالمية.

قالت له أيضًا:

-علاوة على ما سبق، اخترتك لأنك نفيت عنى الشؤم الملتصق بسيرتي

عشرون يوما يذهب فيهم إلى أحد الأجران المهجورة في قلب الحقول، فيجلس على القش ويركن ظهره إلى إحدى الأشجار، وفوق ركبتيه قطعة من الخشب يسند عليها أوراقه وقلمه.

سألها مرة:

-لماذا لا تعطيني الكتاب الآن، ثم أقرؤه على مهل؟

ضحكت كالمرأة الناضجة ولم تجب.

كانت تطير من غابة النخيل متجهة إليه كأنها تمتلك بوصلة مضبوطة.

رآها عدد معتبر من الفلاحين تتحدث معه:

« بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيد الخلق وحبيب الحق، محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

-هذا ما أملته أمة الله البومة الخضراء على عبده الشحات من علم آبائها وأجدادها.

قاطعها:

-ما تلك اللغة التي يكتبها قلمي؟

-لله أنتم معشر البشر،لا توقرون الرموز والإشارات، وتركضون وراء التفسيرات المسهبة التي تثقل النصوص.

ألم يأتك نبأ ذي القرنين،الذي أفهم قوما كانوا منذ لحظات لا يكادون يفقهون قولا؟كن على ثقة أن أحدا غيرك لن يستطيع قراءة ما أمليه، وهل أتاك جديث نبؤات التبع اليمانى عندما أيقن بالهلاك على يدى وائل بن ربيعة المكنى كُليبًا ؟

-قرأت عنها، لكننى لم أهتم بها.

بدأت تنشد بصوت كالكروان لا يمت **بصلة للنعيب** :

يقول التبع الملك اليمـــــــاني

لهيب النار اشتعل في فـــــؤادي

أمير كليب يا فـــــارس ربيعه

ويا حامـــــي النساء يوم الطراد

أريد اليوم أن أعلمـــــــك شيئًا

لتعرف حـــال أخبار العبـــــاد

فموســـــــى كان في الدنيا نبيًّا

له التوراة أعطـــــت للرشـــاد

وداود النبي قد جـــــــاء بعده

يبشر بالزبـــــور أهل الفســـاد

عيسى ابن مريم جـــــاء أيضًا

بإنجيل الخـلاص لكي ينـــادي

نبي لم يكن في الناس مثلـــــــه

لأن الله اختاره يفـــــــــادي

فكم ميت بكلمته أقـــــــامه

ومسقـــــــوم شفاه من الوساد

وعندي قد تبيَّن بالملاحـــــــم

بأنك قاتلي دون العبـــــــــاد

وبعده شاعـــــــر ينزل عليكم

ويفتن بين قيس في البـــــــلاد

وأنت برمح جســـَّاس ستطعن

وعبدي يذبحك بين الجمـــــاد

وتكتب بدماءك على البلاطـــه

لمن بعدك لتشتيت الأعـــــادي

ويأتي الزير أبو ليلى المهلهـــــل

فيصلي الحرب في كل البـــلاد

ويقهر كل جبار عنيـــــــــد

يضـرب بالسيف في يوم الجِلاد

وتأخذ الجليلة لك قرينـــــــة

وتحظى بالمسرة والمـــــــراد

ويظهر لك غـــلام بعد موتك

يسمى الجرو قهّار الأعـــــادي

ويقتل على يده جســـاس خاله

وأما الزير تقتله الأعـــــادي

وسيف ذو يزن بعدك سيظهـــر

وتصحبه السعادة في العبـــاد

ويبقى ملكه سبعين عـــــامًا

ويطوى بعد ذلك في الوهـــاد

ويظهر له ولد يدعى بدمـــــر

شديد البأس مرفوع العمـــاد

فيملك في بلاد الشـــام بعده

يجيب الماء من أقصى البـــلاد

وبعده يظهر المدعـــــو بعنتر

يهين الضد في يوم الطـــــراد

وبعده يظهر الهـــــادي محمد

يقيم الدين مابين العبـــــــاد

وأصحابه معه عشرة كوامـــل

كِرام الناس سادات البـــــلاد

أبو بكر وسعد مع سعـــــيد

وطلحة والزبير ابن الجيـــــاد

وعثمان مع عمـــــــــر وعلي

وعامر مع حسين أهل الرشـاد

يموت الهاشمي ويصير خليفة

على الأحكام بعده بالعبـــــاد

أبوبكر يموت بلســـــــع حية

وبعده عمر يقتل بالطـــراد

علي بالسيف يردية ابن ملجـــــم

يتيمًا انتشـــــى بين الأولاد

ولا يعرف له قبـــــــــر مُحقق

على وجه الثرى بين العبــاد

وتختلف الصحـــــابة على الحكم

ويحكمهــا حسين بالبوادي

وبعده بنو أمية سوف تحكـــــم

وأولهم معاوية ابن وهـــــاد

ومن بعده بني العبـــــاس تحكم

سنين كثيرة بين العبـــــــاد

وبعده الخوارج سوف تظهـــــر

فواطمة الفواحش والعنــاد

يقيموا الشر في كل الأراضـــــي

ويملؤا الأرض طرًا بالفساد

وتظهر من بلاد السرو عصبـــة

فيقصد جيشها غرب البـــلاد

هلال وعامـــــــر من آل قيس

يزيدون حرب حمير مع أيـــاد

حسن أمير فخـــــــــر البرايا

وبعد ديار قهّار الأعـــــادي

وأبو زيد ابن عمـــه ليث أروع

شديد البأس في يوم الطـــراد

يطوفون البلاد فيملكـــــوها

ويسبون العداء أهل العنـــاد

ويمحون العجم مع كل طـاغ

بأرماح وأسياف حـــــــداد

وقبرص والجزائر يملكـــوها

وبدريس الخزاعي والأعادي

شبيب التبعي بالشـــــام يقتل

وتترك جثته فوق الجمـــــاد

وسركيس بن تاذب سوف يقتل

بسيف ذياب قهار الأعـــــادي

كذا فرمند في مصـــــــر الفتية

ستخرب دورها بين البـــــلاد

وبعده يظهر الأشطـــــان ظالم

خبيث الأصل من قوم شـــداد

بنو أيوب تظهر بعـــــــد منه

يقيموا الدين من بعد الفســـاد

ويظهر ابن عثمان المســـــاعد

بأرض الشرق ويحكم بالعبـــاد

ملوك الأرض تخشى من لقاهـم

لأن جيوشهم مثل الجـــــراد

عداد ملوكهم عشرة وعشـــرة

وتسعة بعدهم دون ازديـــــاد

ويظهر بعده ملكـــــــاً قويًا

يثير الحرب في كل البـــــلاد

طويل الجسم مغضـــــوب عليه

له اسمان من ظاهر وبــادي

يقيم السيف في الأقطـــار عمدا

ويجري الدم في كل البـوادى

ويظهر فـــــارس يدعى قطيعه

فعشر سنين يظلم العبـــاد

وبعده يظهر الدجـــــــال حقا

فتتبعه الورى أهل الفســـاد

يجوب الأرض من شـرق وغرب

ويفعل معجزات في البــلاد

ويظهر ضوء المهدي سريعـــــاً

ويسطع نــوره في كل وادي

مع عيسى المسمـــــى ابن مريم

فيقتله ويملك في البـــــلاد

وبعده دابة تظهر سريعـــــــا

فتفعل معجزات في البـــلاد

ونار من عدن تظهر وتســـطع

فتشكو الناس من هـــول المعاد

وبعده الشمس تظهر من مغيب

وتزداد الخلائق في الفســـــاد

ويأجوج ومأجـــــوج جميعا

تحيط رجالهم كل البـــــلاد

فلا نهر الفـــــرات لهم يروى

ولا سيعون ولا الدجلـــة مراد

ويغشى الأرض موتا يا كليبـــا

وجوع وقتل في كل العبـــاد

ونيران تعـــم الأرض طــرا

على أعلى الجبـــال وكل واد

وبعده يغلق باب المراحـــم

وباب الشر يفتح بارتصـــاد

فلا يصعد ولا يأتي جـــواب

فذاك الوقت يحترق العبـــاد

ونيران ستظهـــــــر من جهنم

وينفخ ريح من أقصى البـــلاد

يموت الخلق منهـــا ليس يبقى

سوى الرحمن خلاّق العبـــاد

وبعده يظهر الديـــــــان حقا

اله العرش ديان العبـــــــاد

واسمع يا أمير كليب منـــــي

حقائق قصتي وافهم مـــرادي

فعندي الجفر قد أخبر مؤكـــدا

بما أخبرتكم دون ازديـــــاد

***

أحنى رأسه إعجابا، فسألته ثانية:

وما قولك فى الثور الذي كلم صاحبه ؟

- ما قصته؟

-هي قصة عجيبة وقعت فى حكم السلطان الناصر بن قلاوون، فقد ذهب شخص ليسقى ثوره من النيل فسمعه بعد أن ارتوى يقول:

- الحمد لله

حدث نفس الشئ فى اليوم التالي، فأصيب الرجل بالفزع وأخبر جيرانه،

وانتشر الخبر كالنار فى الهشيم.

كثر الكلام ما بين مصدق ومكذب، حتى قال كبير القرية:

- الماء يكذب الغطاس، خذنا لنسمع بآذاننا.

زحفت القرية والقرى المجاورة لتشهد الأعجوبة، ووقف الجميع يحبسون أنفاسهم.

بعدما انتهى الثور من الشرب سمعه الجميع يقول بلسان عربى فصيح:

- الحمد لله

قال له كبير القرية:

- كيف تتكلم كالبشر؟

قال الثور:

- إن رسول الله أمرني أن أخبركم أنه تشفع فيكم، ورفع عنكم سبع سنين من الجفاف والجوع.

قال الكبير:

- وما علامة صدق حديثك ؟

-إنني أموت غدًا.

ومات فعلا في اليوم الغد، فجاء القاضي وحرر محضرًا وقع عليه الشهود، ورآه السلطان فتعجب غاية العجب.

***

هذا صباح ترقب فيه «شرشيرة «أحد مشاهد جابر شعبان، فيضحك منه العوام، ويتأمله النبلاء ذوو العقول الراجحة.

ليس أمام تلك القرية - في الأوقات الخالية من مفاجآت جابر ومن الحرب بين السكاكره والحدايده بعد أن أنهكوا - سوى الثرثرة في أمالي البومة على الشحات شيخ الجامع.

الـرأي المعلـن في المجالـس، أنهـا أوراق تفيـض دجـلا، لكـن القـرى غالبًـا تضمـر عكـس مـا تعلـن.

وقـد قصـد معظـم المكذبـين داره في قلـب الليـل، ليتلـو عليهـم مـا يخصهـم، وسـخت جيوبهـم بـما طلبـه منهـم، ضاربـا عـرض الحائـط بقـول البومـة أنهـا لتسـليته فقـط .

جابر يكشف دائمًا ما تخفيه البلدة تحت جلدها.

يـوم أقامـت الحكومـة أنابيـب لـصرف مخلفـات المراحيـض قـال للمتفرجـين الفرحـين بـكل رصانـة:

-النفايـات التـي كانـت تخبركـم عـن قـذارة بطونكـم، سـتصير هـي الأخـرى مطمـورة.

ثم تذكر شيئًا هامًا فاتخذ سمت الحكماء وقهقه:

- الميـزة الوحيـدة لهـذا المـشروع العـام، أن فضـلات الحدايدة والسـكاكرة، سـوف تجـد طريقهـا تحـت الأرض للالتقاء.

منـذ بـدأ الشـحات يذيـع الطوالـع، قاطـع جابـر الطريـق المـارة بـداره، وعنفـه أكثـر مـن مـرة، وأغلـق أذنيـه.

شرشـيره صبـاح اليـوم، تتفـرج عـلى مشـهده الجديـد، الـذي أوقـف فيـه سـيارات النقـل الصغـيرة الآتيـة مـن الموقـف عنـد مركـز الشـباب، محتشـدة بالصيادين السـارحين إلى بحيرة البرلس

وقد استبدلوا بملابس القرية من الجلاليب والبنطلونات والقمصان، سترات قصيرة وسراويل سابغة تضيق عند القدمين، واعتمروا أغطية من القماش، مصطحبين الشباك والمجاديف التي لو تركت على الشاطئ فسوف تسرق حتما، ولن تحميها الصلاة والبكاء تأثرًا من المواعظ.

أوقف أيضًا تلك السيارات الخاصة الفارهة المتجهة إلى الأراضي المجففة من البحيرة، وإلى الطريق الدولية وكذلك بعض التكاتك المحملة بالرجال والنساء والأطفال. في الناحية اليسرى من الطريق احتجز ثلاث عربات نقل ضخمة تابعة لشركة البنجر، أدى مرورها اليومي بحمولات ثقيلة إلى تدمير الرصيف وتحويله إلى منحدرات وأشلاء، وعدة سيارات أجرة عائدة إلى دسوق وكفر الشيخ، علاوة على عربتي كارو محملتين بالبرسيم والبطاطا ودراجة بخارية.

***

صيادو شرشيره ابتسموا، وعقدوا أذرعهم حول صدورهم حتى ينتهي من طقسه ويفرج عنهم، وقد تحقق ذلك بالفعل كما يحدث دائما. اقترب من عرباتهم وابتسم ولوح لهم وقال:

- سألحق بكم

بعض الغرباء تعرضوا للاحتجاز من قبل، فصمتوا وزفروا يائسين تمامًا من تدخل المقدم حلمي ضابط النقطة.

أمّا الذين تصادف مرورهم لأول مرة، فلم ترقهم تلك القرصنة وتناجوا بعصبية.

من خلال الكلمات القليلة الملفوفة بالملل اكتشفوا أن من بينهم رجالا يشغلون مناصب خطيرة، لكن غرورهم لم يسمح بطلب النجدة. لم يتصور أحد من المحاصرين ملل جابر وتبرمه بما يفعل، ألا يوجد رجل سواك ؟

كان يتأرجح بين خيارين منذ الأمس:

إما أن يثأر للرجل السبعينى الذى تحطم حوضه تحت عجلات أحد ملاك الأراضى، أو يتجه إلى البحيرة ويهتم بقوت أطفاله.

ورغم ضيقه من تلك العروض التى يقوم بها، فانه قرر أن يكون عرض اليوم هو آخرها، لأنه سمع بعد صلاة الفجر أن الرجل المصاب يعانى سكرات الموت.

ليتحمل سخافة أخيه جاد الله، عند قدومه من مقر عمله بالوحدة المحلية، بطيئًا كأنه لا يفكر في شيء، معقد الجبهة، مزموم الشفتين لا يريد أن يفتحهما، ظله الطويل يزحف خلفه مرهقًا، إنه يتجنبه ويكره سهره في مندرة الحدايدة حتى الفجر مما يؤدى اليى انطلاق أقاويل حادة كالرصاص، تتعلق بزوجته.

يكره أيضًا كلماته التافهة التي تردد بإعجاب من شباب استهواهم بمهارته الكلامية، ومن عينتها:

- كيف يتدخل الله في كل ذرة من شئون الناس، ولا يسمح لأحد أن يتدخل في شئونه؟

كاد أن يرد له الصفعة أكثر من مرة:

- اهتم أولا بشئون زوجتك، ثم تحدث عن الله.

ابتلع الكلمات الحادة فجرحت زوره وقرحت معدته، حسمت

زوجته القضية:

- لن تتحرك فيه شعرة، بل ربما أفقدك صوابك

دائمًا تعيده إلى رشده، ربما يظلم ولاء!

ألم يرها المخبر فوق المئذنة مكان البومة ؟

لقد صمم عدة مرات على قتلها لولا خوفه من انكشاف مؤخرته في دورات مياه السجن الخالية من الأبواب !

وصل به الأمر أن فكر في الانتحار بعد أن يتخلص منها كي لا يتعرض لتلك المهانة التي تطارده منذ الطفولة.

ليس ببعيد أن الله أراد أن يجنبه كارثة ولولا خوف الأهالي منه لظلوا يلوكون موضوع الجحش.

ليلة أن تغلب على مخاوفه من حمامات السجن الخالية من الأبواب، وقرَّر أن يقتلها وينتحر، ظن أن مضغ قطعة أفيون سوف يمنحه القدرة على اقتراف القتل لأول مرة، وقد ظل مصلوبا فى الظلام حتى رأى شبحها آت يتبختر، احتضنها وغرس المطواة فى رقبتها، زاعقًا بأعلى صوته:

الآن أموت مستريحًا

أراد أن يلقيها كالقمامة ويذبح نفسه، لكن بعض الأهالي خرجوا وعلت أصواتهم، فأفاق والجحش الجريح بين ذراعيه.

***

لــن يؤاخــذ زوجتــه في إلحاحهــا، كــي يذهــب إلى دار الشــحات ليســمع مــا ورد عنــه، فهــو ليــس في نظرهــا أكثــر فطنــة مــن المقــدم حلمــي.

هــل مــن عاقــر الســماع الالهــى مثــلى، واســتحال صوتــه المنكــر إلى شــدو بلبــل عندمــا رفــع أذان الفجــر فــوق الســطح، يمنــح مصــيره لمنقــار بومــة ؟

لا يفهــم كيــف يســيطر خيالــه عليــه في موقــف الضجــر هــذا أمــام رتــل الســيارات، فيعــرض بــلا مقدمــات صــورة شــهد ابنــة خالتــه فــوق التوتــة كأن الزمــن زال.

ها هي على الغصن الذي يعلوه كعصفورة رشيقة.

كان يحدثهــا منهمــكا في اصطيــاد فحــول التــوت الفضيــة المنتفخــة، وبــلا إرادة منــه رفــع عينيــه نحوهــا فــرأى كنزهــا الصغــير مُتجســدًا بوضــوح مــن خــلال قطعــة قــماش ضئيلــة منزلقــة مــن جانبيــه.

وجــد صعوبــة في أن يبتلــع ريقــه، واســتقبلت العصفــورة نظراتــه النارية المحملــة بالحنــين، فاحترقــت بهــا عــلاوة عــلى احتراقهــا الــذاتي.

تعالــت أنفاســها إلى درجــة اللهاث، وبــدت كقطة في الشــبق، فخــرج منهــا صــوت يشــبه المــواء المتقطــع، قــال لهــا آمــرًا:

- انزلي.

هبطت بلا تفكير وفى حديقة الليمون رأى ما كان يحلم به.

لمسه بكل أدوات اللمس، وسمعه بكل أدوات السمع، لكنه لم يتلذذ كما خطط، بل ارتعش وسخن وتقيأ فوقها.

ظل يتقيأ في البحيرة عدة أيام كلما تذكر أن ما رآه لم يكن فاتنا ولا أسطوريًّا، وأن ما تخيله من قبل محض هراء، وظل يحدث نفسه منفردًا في قاربه:

لابد أنك يا الهى خلقت أندر قطعة في المرأة، مثل قطعة البقرة لحكمة بالغة

لأيام عديدة مرض وكره الطعام، لكنه الله أنقذه بكشف ألقى فى روعه:

ألا ترى يا جابر تهالك الناس على تلك القطعة التى لا تعجبك، ماذا عساهم يفعلون إذا خلقت أجمل من ذلك؟

***

هذه بلدة تترقب المخلص، ثم تسخر منه وتحتقره وربما تقتله.

لديك يا شرشيرة نقطة شرطة، ووحدة محلية، ومجلس محلى، ولجنة صلح، وعضو مجلس الشعب.

لديك أيضًا طبيبان على الجسر، ومحامون في نفس البنايات، ومواقع تواصل لا تكف عن الضجيج، وأساتذة جامعة وكبراء ومثقفون، سأترك لهم ذلك الأمر التافه فيما بعد ليعالجوه.

لن يكلفهم أكثر من كومة من التراب أو عدة إطارات قديمة توضع في مدخل القرية، لتكبح جماح السيارات الطائرة.

لن أقف هنا ثانية لتتهكموا على وتقتلوا الوقت الثقيل بمغامراتي حيث احتجزت المستشارين وضربت المؤذن.

ربما تعجب القلة بشجاعتي ويعتبرونني مواطنًا مميزًا، لكن هذا لا يكفي.

بضع زبائن على المقهى المطل على الترعة تركوا التلفاز الذي يعرض رقصة مثيرة، وتابعوا انفعالات المحتجزين، فقد هبط عدد منهم وطلبوا مشروبات ساخنة وباردة، وتفحصوا الجسر والحقول الممتدة خلف الترعة بلا نهاية.

مروا من هنا مئات المرات، لكنهم لم يجلسوا ولم يكتشفوا ملامح المكان.

هم في انتظار الرسول الذي ذهب إلى الوحدة المحلية ليحضر جاد الله.

ابتسم سميح صاحب المقهى بمكر، معتبرا ما يجرى علامة على حظه هذا الصباح، فالمقاعد امتلأت، والاكتئاب الذي استيقظ معه في الصباح هرب.

ابتسم مفرجًا بين شفتيه، واستقبل جابر بهجته فكاد يتجاوب مع صديقه، لكنه أغلق شفتيه الضخمتين المشتعلتين وعدل من وضع الطاقية البيضاء على رأسه.

صاح عبده البنا صاحب محل الفول والطعمية، وهو يلقى الكبشة في قدر الفول:

- رجل من ظهر رجل يا جابر.

قلنا ألف مرة هذه قرية وبها أرواح، وليست صحراء يرمحون فيها فيهرسونا ويدمرون طريقنا، صدق الشحات لما قال عنك بطل القرية.

الأرملة شهد ابنة خالته، كانت تقف في طابور الفول والطعمية، فنبهها صوت عبده البنا الأبح، أطلقت زغرودة طويلة ونادت بكل ما في صوتها من قوة:

-لم يعد في شرشيرة رجل سواك يا ابن خالتي.

كيف واتتها الشجاعة لتخاطبه هكذا ببساطة؟

هـل سـبحت في عقلـه و رأت آثـار تفكـيره القـسرى فيهـا منـذ لحظـات؟

موسـى الجـزار كان مغلـق الفـم والعينـين، كعادتـه عندمـا يجلـس بـلا عمـل.

في الأوقـات القليلـة التـي يفتـح فيهـا عينيـه، ينظـر نحـو الحقـول ولا يهتـم بـما يـدور حولـه، وعندمـا يسـتمع محمـدى إلى شـائعة أو فضيحـة يسـعى اليـه فيـسر حمولتـه فى أذنـه.

في الصبـاح يـأتي مـن مدينتـه دسـوق برفقـة الذبيحـة المجهزة والمختومـة في السـلخانة، ويظـل ملتصقـا بمقعـده لا يفارقـه إلا بقـدر مـا يبيـع صامتًـا أو معـبرًا عـن موافقتـه ورفضـه بهـزات مـن رأسـه.

حـين يقـوم جابـر ببعـض مفاجآتـه يسـارع عـلى الفـور بإخفـاء السـكاكين والسـواطير وكل مالـه صلـة بالذبـح والقطع في الثلاجـة الكبـيرة المغلقـة.

لا يـراه أحـد يـأكل أو يـشرب أو يلبـى نـداء الطبيعـة في الجامـع، لـذا أطلقـوا عليـه اسـم موسـى الصائـم.

حـين تميـل الشـمس قليـلا يختفـي ويحـل محلـه بـاب مـن الصـاج وقفـل كبـير.

صف طويل من السيارات لا يمكن لواحدة منه أن تتحرك، منع جابر استخدام آلات التنبيه.

تجمع أطفال وبعض رجال وسيدات شارع الجسر، ومن جاء منهم من قلب شوارع القرية الثلاثة القادمة من أحياء الصيَّادين والفلاحين والقبالوه لتصب فيه:

شارع عبد الحافظ وشارع المدارس وشارع صيدلية المغازى.

يأتي أهالي القرية منها، ليجلسوا على المقهى البحري أو يمروا على دكاكين الجزارة والبقالة والمطعم والحلاق والمصلى الصغير والفرن.

وقفت فتيات العيادتين ومكاتب المحامين في النوافذ وكذلك أهل المرضى الناقهين، فأصحاب المكاتب في المحاكم وأصحاب العيادتين في المستشفى.

تحدث البعض عن جابر يوم أذن لصلاة المغرب، وعن الضحك الذي أريق في البيوت والشوارع، وعن تغير صوته إلى النقيض يوم أذن لصلاة الفجر !

أطلق محمدي بائع السمك صوته العريض، وهو يذب الهوام عن المنضدة المبطنة بالصفيح، يتمدد فوقها البلطي المتوسط الحجم والبوري.

بجوارهـا يسـتقر عـلى الأرض نصـف برميـل تعـوم فيـه القراميـط الحيـة، ولا تنفـك تطعـن الصـاج بذيولهـا، فيهـرب المـاء عاليًـا:

-البـورى المتـين، جربـوا بـوري المعلـم محمـدي ولـن تندمـوا.

لم يعـره أحـد التفاتًـا، فتبـددت آمالـه في يـوم رائـج وقـال زاعقًـا:

- لا نجنـى منكـم غـير الحـزن، أنـا متضامـن معـك يـا جابـر.

وقـف جابـر بقامتـه المربوعـة ووجهـه القمحـى الوسـيم وعينيـه المليئتـين بالـذكاء والحـيرة.

خلـع طاقيتـه البيضـاء ذات الحـواف ثـم لبسـها أكثـر مـن مـرة ليمسـح حبيبـات العـرق التـي خلقتهـا الشـمس الواقفـة بالضبـط فـوق رأسـه تتفـرج.

طلب إبراز الهويات والرخص:

-لا أقرأ ولا أكتب، ليذكر كل منكم وظيفته.

بعد أن انتهوا، قرعهم:

-معظمكم من الأعيان وذوى المواقع الخطيرة،

فلماذا لا ترفقون بنا نحن الفقراء، وتسيرون ببطء يتناسب مع بشر وحيوانات ودواجن ؟

ما هي إلا دقائق ويصل جاد الله، ليثبت للجميع أن ما يفعله شقيقه ليس إلا فقاعات في الهواء، وأنه الوحيد القادر على إيقاف تلك المهزلة.

طاف بخاطره الضابط حلمي، مبتسما كعادته ومتفهما.

تحدث معه عن استهتار هؤلاء بأرواح أهل شرشيره، انه مدين له بالكثير.

يكفى طريقة استخدام الصابونة بعد أكل السمك المشوي، كان قبلها يغسل ويداه ملطختين بالقشر فيلتصق بها وتظل ملوثة حتى تنتهي.

المقدم حلمي وقف أمامه على الحوض وغسل يديه من القشر بالماء فقط، بعده جاء دور الصابونة لتظل بيضاء ناصعة.

كان سحرا بالنسبة له، وظل فرحًا لوقت طويل بهذا الدرس الثمين.

جاء جاد الله يسعى

شتم جابر كالعادة فلم يرد عليه، سحبه إلى المقهى وأطلق سراح السيارات فولت هاربة.

ابتسم جابر وطلب الدومينو وكوبا من الحلبة ولم يتأثر لقول أخيه وهو يعود إلى عمله:

- اذهب إلى الفطاطرى طبيب الأعصاب وكرر العلاج.

اقتحم الشيخ الشحات المقهى ووقف فوق مقعد وصرخ بكل عزمه:

-يحيا جابر محول شرشيرة من قرية بائسة إلى مدينة زاهرة، ومخلصها من الجهل والجفاء

نهض حاملا مقعده ليشج رأسه وأطلق خلفه كلمات قاتلة كالرصاص:

- ألم تخبرك البومة أنني ذات يوم سأعلقك على هذه الشجرة ؟

قفز كأرنب وانطلق يجرى في شارع المدارس وتذكر الآن فقط بؤسه وخيبته، الكتاب ليس فيه كلمة واحدة عن طالعه ولا عن طوالع أسرته !

اعتقل الجالسون ضحكاتهم العفية بكل قوتهم.

عبد الله عامل مجلس القرية شاهد الأحداث بينما يشترى شطائر للموظفين، هرع إلى رئيس المجلس سعد رزق فملأ أذنه.

هـز رأسـه وابتسـم وقـال لرجلـين مـن أعيـان شرشـيرة مـن عائلـة السـكري يجلسـان أمامـه:

- لا يمكننـي أن أتدخـل أبـدًا، جابـر عـلى حـق، وكلكـم يعـرف حـوادث السرعـة في شـارع الجـسر وعربـات البنجـر الثقيلـة التـي جعلـت الشـارع حفـرا.

قال نصر السكري صاحب محل لماكينات الري:

- جابـر مخلـص لبلـده هـل يمكـن مقارنتـه بشـقيقه النـمام، كلـب الحدايـده؟

أمن شكري السكري المدير بالتربية والتعليم قائلاً:

-.أخوه كافر يرفع صوته في وجه الله.

قـال رئيـس القريـة، وهـو يتذكـر كلـمات ولاء السـاخرة عـن زوجها:

- مـع الأسـف القوانـين تعاقـب عـلى إهانـة المسـئولين، ولا تنشـغل بإهانـة خالقهـم.

قال نصر السكري:

- انقله من الوحدة كلها.

- لا يمكنني لأنه ببساطة يوقع بالحضور والانصراف في موعده.

سوف أكلم سالم رشاد مرشح الحزب للمرة المائة، حتى يتفضل علينا بإقامة مطب صناعي.

شكر رئيس القرية الظروف، لعدم اضطراره إلى العيش في تلك البركة الهائجة وان كان فى قرارة نفسه يرتبط بجزء منها فى الخفاء، ولا يمكنه التخلى عنه، فثمة قوة خارقة تخرجه من بيته فى منتصف الليل ليقابلها عند القناة.

شعر بالبرودة تتسلل إلى جلده، تماسك واحتقن وجهه الأسمر،انتخابات النواب على الأبواب، وستتحول القرية إلى مطحنة تهرس القرابة والصداقة.

طاف بذهنه ما نقل عن الشحات بخصوص الانتخابات.

ستقف عائلة الحدايده حجر عثرة أمام تسويد البطاقات لصالح سالم رشاد مرشح الحزب الوطني.

بهذا ينفجر الصراع ثانية مع السكاكرة المتعاطفين مع حزب الحكومة.

إنه يعود في نهاية اليوم إلى شقته في المدينة، ويحاول نسيان الضجيج الذي يحطم رأسه قال لضيفيه:

- زارني أمين الحزب وضابط النقطة ومندوب أمن الدولة، هذه المرة مطلوب من شرشيرة أن تمنح أصواتها بالكامل لمرشحهم.

قال نصر السكري:

- وهل يملك أحد إقناع تلك القلوب المليئة بالحقد .إن كل المرشحين يحصلون على أصوات من قريتنا.

اعترض شكري صائحا:

- هذا داء لابد من معالجته، لم يلق أي نائب بالا لنا، لأننا لا نعرف مصالحنا، بل تركنا مصائرنا في أيدي الصغار والملحدين.

تنهد سعد رزق قائلا:

- وجودي هنا رهن بتنفيذ الأوامر، لا بديل عن التزوير، ولا تنسوا أن هناك عائلة الحدايدة التي تناصبكم العداء.

رفع نصر عينيه وقال:

-ذهبت إلي الشحات مع شكري، كنا نتسلى، وسمعنا ما يشيب له شعر الجسد كله.

-ماذا قال لكما؟

-سنكون وقودًا للحوادث الأولى، ولن يكتفي في الحرب الجديدة بالقتل،

بل ستظهر تقليعات تجريد الجثث من ملابسها، وتركها تتحلل في الشوارع تحت حراسة مشددة.

- هل ذهب المقدم حلمي إلى بيت الشيخ ؟

- ذهب سرًا، لكن جبر المخبر الذي صحبه عاد يستطلع مصيره، فنهره الشحات وصاح في وجهه:

-ماذا عساك تزن؟ إن البومة أملت على الوقائع الخطيرة التي سيقوم بها بشر من نوع جابر والمقدم حلمي وعلى البنا بائع الفول والطعمية ومحمدي بائع السمك وأبطال الحدايده والسكاكره وبعض المنتسبين إلى الطرفين، وقليل من الغرباء.

بعد أن انصرفا أدرك أن كل قطعة فيه تطالبه بالذهاب إلى الشحات متخفيًا، لكنه نثر تلك الأفكار بعيدًا ووبخ نفسه قائلاً :

وهل أنا من تلك القرية الـ...؟

كاد يقـول، الملعونـة، لكنـه أجهـض لسـانه، وابتسـم عندمـا طافـت بخاطـره ولاء.

نادى السائق ونهض ليغادر.

لمـح جـاد الله يجلـس فى مكتبـه وبيـده كتـاب، انعطـف قليـلا ليعنفـه، لكنـه لم يكمـل مـا انتـواه وخـرج إلى الشـارع يتنفـس بـكل قوتـه.

***

وقـف المخـبر جـبر يراقـب بابتسـامة ضعيفـة، لكنـه تذكـر فجـأة مـا أرسـله المقـدم حلمـي مـن أجلـه.

فتـح سـاقيه القصيرتـين بصعوبـة واخـترق شـارع المدرسـة، ثـم انعطـف يمينًـا إلى شـارع عبـد الحافـظ ودخـل النقطـة.

انحنـى عارضـا كفيـه المتغضنـين والمبتلـين بالمـاء، ليثبـت أنـه نفـذ الأمـر، واقتلـع الحشـائش مـن أحـواض الخـضروات والزهـور خلـف البيـت، ثم سـقاها بكل عنايـة: - تمام يا باشـا.

أشـار إليـه لينـصرف، لكنـه تمهـل وحـارت عيناه في السـقف تـارة وفى أرضيـة الغرفـة تـارة أخـرى، فتـح شـفتيه ثـم أغلقهما، قـال المقـدم بملل:

- مالك ؟

- جابر القوى يحتجز السيارات وهناك صف طويل على الجسر

عرض عليه الشريط الذي صوره بهاتفه.

نظر في الصور المتتابعة وابتسم وهو يرى رجالا ذوى حيثية يقفون كالأطفال.

رفع مقعدته الكبيرة المتنافرة مع جسده الممشوق، والتي يتبرم بوراثتها من أمه، لكنه أعادها إلى مكانها من المقعد الهزاز، وأشار إليه ليخرج. تذكر أن موعد تسلمه البناطيل الجديدة غدا فى دسوق، اشترى قماشا من نفس نوع بذلات الضباط وطلب من الخياط الشهير، أن يتفنن فى جعلها واسعة من الخلف لا تفسر هاتين الهضبتين، بينما تبقى عادية من الأمام، استراح أخيرا من ذلك الهاجس الذى يسيطر عليه كلما تحرك .

اتهم نفسه بالإهمال، ثم استعاد اتزانه. وذرع الحجرة،

هل تخلفت مرة عن دفع ثمن البوري الذي يحضره لي مضاعفا ؟

جابر هذا في داخله سر.

لا أنكر أنى أحبه بقدر احتقاري لجاد الله.

هـا أنـا عاجـز عـن بسـط الأمـن في نطـاق وظيفتـي، وعاجـز أيضًـا عـن وضـع حـد لمغامـرات زوجـة جـاد الله.

عـرك الملـف المتخـم أمامـه وأخـرج ورقـة مليئـة بالكلـمات التـى كتبهـا البوهـى، وقربهـا مـن عينيـه للمـرة العشريـن : ...

«ولا يخفـى عـلى سـيادتكم أن زوجـة جـاد الله شـعبان تقـضى الليـل في فـراش المغـازى الصيـدلي وهـذا فجـور لا يليـق بشرشـيرة النظيفـة و. .....»

تذكر ما قاله جبر عن البومة فابتسم.

هـب واقفًـا، مـن الأفضـل أن يختفـي في البيـت حتـى تنتهـي تلـك المهزلـة.

سـار بخطـى عسـكرية، قـام النـاس يحيونـه بأيديهـم وأصواتهـم.

اسـتقبله الخفـير المعـين للحراسـة، سـار في الممشـى المبلـط بحـصى ملـون، ومـد يـده ليقطـف وردتـين بلديتـين حمراويـن:

واحدة لزوجته التي تشردت معه في الصعيد والدلتا.

كيف تحمل ذلك الجفاف هنا؟

هـل هـو سـمكها البـوري الرائـع، انـه يـذوب شـوقا لـه، وينسـى كل همومـه عندمـا يوضـع أمامـه مشـويا.

الـوردة الثانيـة لوحيدتـه نسـمه التـي أنجبهـا في الأربعـين، وتوقـف رحـم أمهـا عـن احتضـان الأجنـة.

هـل يصـدق الرجـل العجـوز صاحـب النبـوءات، فتختفـي نسـمه ولا يراهـا حتـى يمـوت؟

منـذ ذهـب طائعًـا للشـحات وسـمع مـا يخصـه حـاول أن يتجاهلـه، لكـن أعصابـه خانتـه.

لـو كان الأمـر متعلقـا بكارثـة تصيبـه في بدنـه مـا حمـل كل هـذا الهـم، ومـا عانـى كل هـذا القلـق.

إنـه يـرى ابتسـامة غريبـة عـلى شـفتي السـائق عندمـا يـصرخ في وجهـه:

-لا تتحـرك مـن أمـام المدرسـة، عنـد أول رنـة لجـرس الخـروج تقـف بالسـيارة أمـام البـاب ولا تدعهـا تخطـو خطـوة واحـدة في الشـارع.

لـو أطـاع وساوسـه لـترك النقطـة ورابـط أمـام المدرسـة، بـل ربـما دخـل معهـا الفصـل. السـائق يبتسـم كأنـه يريـد أن يقـول له :

-أعرف ما تخشاه يا سيدي، كيف تصدق هذا الهراء ؟

استطاع حتى الآن أن يصمد فلا يخبر زوجته ولا ابنته.

فكر كثيرًا في القبض على الشحات ومصادرة الكتاب الملعون، لكنه ذهب وجلس واستمع وصدق وعانى !

هل سيصمت إزاء ما تسرب من الكتاب عن مذبحة سوف تقع يوم الانتخابات التى بقى عليها شهر واحد؟

شد قامته ووصل إلى البيت.

فتح الباب بالمفتاح فتسللت إليه رائحة يحبها، تنفس بعمق واهتزت الوردتان في يديه.

تذكر أن أمعاءه تؤلمه وربما تنغص عليه وليمة البوري، سيذهب إلى المغازى ليمنحه دواء مهدئا للأمعاء، وليكرر دواء الظهر الذى نفد، قبل أن يثور كالبركان.

ماذا يبقى من الدنيا إذا حرم من سيد الأسماك؟

نعق غراب فوق شجرة كافور خلف المنزل، امتلأ جبينه بالغيوم وتضاعفت آلامه.

أراد أن يوبخ العساكر، فقد طلب منهم كثيرًا أن يصطادوا الغربان المشئومة حتى لو لزم الأمر استخدام الذخيرة المرى.

يمكن تقييدها في الدفاتر:

«مطاردة مع لصوص من العزب».

لم يقوموا أبدًا بما طلب، لابد أن يمسك البندقية بنفسه ويطارد الطيور الكريهة.

ارتمت نسمة في حضنه، فضغط عليها وقبلها على وجنتها، تأوهت بين يديه:

- تقبلني أم تعصرني يا بابا ؟

هذا الملاك الرقيق يخصني ولا يمكن لأحد أن ينتزعه.

نظر إلى السماء وأرسل شكرًا ورجاء صامتين لله، انفلتت وغابت في حجرتها تشمم الوردة تبعها ببصره غير قادر على التفريق بينهما.

إنها أنضج من فتاة في الخامسة عشرة، قوام ملفوف كامل الأنوثة، وجه مستدير متناسق، ملامح آسرة، شعر كعرف المهرة.

وهناك في المطبخ كان البوري يشتعل بفعل الدهون المكتنزة داخل الفرن الكهربائي.

وكانت زوجته بهيجة تقف متوردة الخدين في عباءة واسعة تخفى بدانتها. أشار لها بالوردة فالتقطتها ووضعتها خلف أذنها، ثم قالت:

- خذ حمامًا وتعالى على المائدة.

عندما فتح الدش وانهال عليه الماء البارد، انتعش عقله، وفكر فيما جعل رؤساءه يثنون عليه حتى الآن. إنه العام الذى قضاه، ولم تقع فيه

حادثة واحدة.

لست أنا من منع الحرب، إنها سكينة التى ابتلعتها الأرض، وأصبحت ذريعة للانتظار.

لا أحد فى الداخلية يفقه ذلك، وهو لن يرفض شهادة التقدير المعلقة خلفه، تشهد أن السيد المقدم حصل على شهادة تقدير لجهوده الملموسة فى استتباب الأمن بالناحية.

تذكر أمه ثريا دردير، يحدث هذا كلما رأى عيني ابنته، نفس الزرقة والاتساع والسحر الكامن فيهما.

هل تكون الحفيدة نسخة من الجدة الجميلة التي حافظت على رشاقتها حتى اليوم الأخير؟

كانت في السبعين تتكحل وتمشط شعرها وتصبغه بالحناء، ثم ترتدي الروب فوق ملابسها المنزلية وترقد على سريرها تشرب القهوة كأميرة.

قال لها يوما في ذكرى وفاة والده تاجر الحلويات بطنطا:

- لمن كل تلك الزينة يا أم حلمي ؟

تعجبت لحظات بقلب شفتها السفلى ثم قالت:

- دائمًا تعتقدون أن الله خلقنا فقط لمتعتكم.

***

على حدود حي الصيادين مقهى قديم، مقاعده ومناضده من البردي لا يُقدم سوى الشاي والحلبة.

يسهر فيه معظم الهاربين من صخب الجسر، والشباب الذين يفضلون السهر بجوار بيوتهم.

هناك بضعة دكاكين شحيحة الزبائن لبقالين وحلاقين ونجار واحد.

هرب قلب شرشيرة النابض إلى الجسر منذ رصفت الطريق وارتفعت البنايات مكان مزرعة أبو السعود حديد.

سعيد الزقلوط يلبد في ركن ويدير شبكته المشبوهة بالهاتف بعيدا عن المخبر.

يتحدثون أول الليل عن جدهم على الملاح الذي يكتبون اسمه على كل قارب أو فلوكة جديدة.

يدعون أنها تذوب في النهاية بفعل الماء والطل، إلا القطعة التي تضم الاسم العزيز فتظل محفوظة لديهم على أسطح البيوت لتباركها.

يحكون حكاياته وهم يلعبون الدومينو حتى يدب النوم إلى العجائز.

أمَّا الشباب فبعد سيرة الرجل التقى يهرعون ليحيطوا بالزقلوط، معظمهم يحجز ولاء زوجة جاد الله التي لا ترتدي ملابس داخلية ثم يبتاعون منه نصيبهم

من الأفيون.

يحكون أحيانًا عن أمنية جابر القوى أن يؤذن في الميكروفون ويتوزع صوته من المئذنة في شرايين شرشيره.

قاومها طويلا لمعرفته أن ذلك ممنوعا، وأن صوته مزعج لا يمكن تحمله.

في ذلك اليوم لم يستطع الصبر، ووجد نفسه يؤذن في غير الموعد داخل البيت وفى الشارع.

ليذهب للشيخ الشحات شيخ الجامع ويستأذن منه مرة.

كان البعض قد جلسوا، لم يكن الشحات موجودا، فاتجه إلى الشيخ عبد السلام المؤذن:

- هل تسمح لى برفع الأذان من مكبر الصوت الجديد المعلق على المئذنة الجديدة؟

-هذا ممنوع.

مال على أذنه هامسًا:

-سوف أحضر لك في بيتك مقطفا من البلطي الخنينى.

صرخ الشيخ:

- ترشوني بمقطف بلطي خنينى، لأجعلك تثقب آذان الناس بصوتك الذي يشبه صوت الحمار.

ضحك الجالسون، هنا استطالت يد جابر التي تشبه مخلب وحش، ولطمه على خده الأيمن، فارتمى يتلوى على الحصير.

في وقت المغرب ذهب إلى الجامع، وجده هناك منتفخ الخد، محمر العينين، وحين لمحه فتح الجهاز وناوله السماعة في صمت.

هز كتفيه ليعدل الجلباب، ثم تعرق وجهه

القمحي الجميل، ومط رقبته فخرج صوته يسرى في عروق شرشيره.

خرج الناس على الأبواب، وكرروا تشبيه الشيخ عبد السلام، وضحكوا من قلوبهم، وتساءلوا عمن يكون المؤذن، وحين عرفوه ابتسموا والتزموا الصمت.

الشيخ الشحات اقترب منه مبتسما وقال بصوت خفيض دون يأس:

-أنك أهنت موظفا عامًا، ومع ذلك يسرني أن أبشرك، أنت من القلائل الذين خدمهم الحظ في تلك القرية.

ستكون المخلص وبك تنتهي العصور السوداء التي عاشتها طويلا.

زرنى فى بيتي ولا تتردد وسأقرأ لك تفاصيل حظك حتى يومك الأخير، وتفاصيل حظ أخيك الذي سوف يكون مضغة في الأفواه، بعد أن تتهم زوجته بقتل المغازى.

لم يـرد، وجـذب نفسـه مـن يـد الرجـل القابـض عـلى جلبابـه.

***

منـذ كان طفـلا، يقـف جابـر تحـت المئذنـة القديمـة التـي لا يعـرف أحـد مـن الأحيـاء متـى أقيمـت، مملـوءًا بالرهبـة، أثنـاء قيـام الشـيخ سـعد الشـهيد بمـط رقبتـه، والـدوران في الشرفـة المسـيجة بالخشـب، ليـوزع الآذان بالعـدل عـلى أركان شرشـيره.

يحفظ ابتهالات رمضان المنقوشة في قلبه:

-سـبحان فالـق الإصبـاح وجعـل الليـل سـكنا والشـمس والقمـر حسـبانا ذلـك تقديـر العزيـز العليـم

بكـى عـلى الوسـادة وانتفض واسـتغفر لأنـه أزعج المسـلمين بصوتـه المخيـف، صعـد السـطح فى عـز الشـتاء والظلمـة، تفحـص الفضـاء الأسـود فـوق رأسـه، فـرأى مـن خلالـه ابتسـامة الله الجميلـة، قـال باكيـا:

- سـامحني يـا إلهـي، أعـرف خشـونة صـوتي، لكـن حبـي للنـداء سرق عقـلي

سمع صوتا ملأه بالراحة يقول فى حنان:

- إن صوتك كصوت البلبل حين يشدو فرحا بالفجر

كنا فى ذروة الشتاء، ارتفع نشيجه ولم يعد يشعر بالبرودة التي تلف القرية في ثوب من الضباب.

ظل يحدق في الابتسامة الثابتة، ولا يجد قدرة على التحرك من مكانه.

عندئذ صدح بلبل صغير كان مختبئ في عشه، ابتسم للبشارة.

لعلها المرة الأولى التي يرى فيها أحد البلابل فى شرشيرة، خلال لحظات جاءه صوت المؤذنين من الجامع القريب ومن جوامع العزب القريبة.

لم يعد يسمع صوت الشك فى قلبه، وسيطرت عليه رغبة عارمة في الأذان.

وضع يده وراء أذنه وبدأ.

رفع جيرانه المتجهون إلى المسجد رؤوسهم ولم يصدقوا للوهلة الأولى أن هذا الصوت الشجي الرخيم يخرج من حنجرة جابر شعبان.

قبل هبوطه ليصلى في الجامع، اغتنم فرصة اقترابه من ربه، فقال:

– يـا رب،لا تغضـب مـن جـاد الله، أنـت تعـرف حقيقـة قلبه الضعيـف، ذلـك القلـب الذي ينسـحق، ويمتلـئ باليـأس، أنت توجـد دائـمًا لـدى منكـسرى القلـوب، لـولا أنـك تدركنـي، وتسـمعني صوتـك، لكنـت مثلـه !

أعـف عـن جرأتـه يـا الهـي، أنـا سـمعته يجـدف، ويـصرخ في وجهـك الكريـم، قائـلا: لمـاذا تضطهـدني ؟

ومـــن فيضـــك يـــا الهـــي خلصـــه وخلـــص ولاء زوجتـــه واكشـــف لي عـــن حقيقـــة تشـــبه البومـــة بهـــا.

لقـــد رفعـــت يـــدي الحديديـــة المعروفـــة أمـــام اللصـــوص والكاذبـــين، وبســـببها قالـــوا إننـــى ممســـوس.

لكنـك تعلـم أننـي لم أرفعهـا في وجـه ضعيـف أو مظلـوم، اسـتخدمتها فقـط في وجـه الجبّاريـن، وفضضـت بهـا معـارك، كادت تـؤدى إلى كـوارث.

وحملـت فلائـك ضخمـة، إلى المـاء، ودفعـت سـيارات نقـل و أجـرة، انغرسـت في الوحـل، ورفعـت الـكارو التـي سـقطت للخلـف بحمولتهـا، فتعلـق الحـمار وكاد يشـنق، وأطفـأت حرائـق، و أنقـذت غرقـى، وحملـت نعوشـا، وجثثـا، وحفـرت أنفاقًـا وترعًـا!

***

ما إن وضع جابر رأسه على الوسادة بعد الغداء، حتى رأى نفسه يسير في أحراش البحيرة برفقة جاد الله، وأبو الفتوح حديد ومنتصر حديد.

اكتشف أن سكينه تسير خلفهم منذ البداية كأنها تطير، وأن أحدًا ممن يسيرون معه، لم يخبره بوجودها.

كان ودودا مع شقيقه في الحلم، بل وضع يده على كتفه وهمس فى أذنه بحديث طويل.

لم يسأله عن وجود سكينه الغامض، ولا عن المخبأ الذي تسللت منه في غفلة من السكاكرة.

لا يذكر بالتفصيل ماذا قال له، لكنه توقف فجأة وسط البوص، وأشار

إلى رفيقيه.

قال أبو الفتوح مخاطبًا شقيقته بحنان:

-لابد أنك سمعت ما ينوى السكاكرة فعله بك ؟

- نعم واقشعر بدني، لكنني تماسكت ؟

- أنت قمت بما طلب منك على خير وجه. لو فعلها رجل ما أكل قلوبهم الغيظ بهذه القسوة.

قال منتصر ابن عمها:

- كان رأيًا صائبًا، وزادت عليه امتلاخ الخصيتين وابتلاعهما.

- كان ذلك وليد اللحظة،

الرجل لم يقاوم بل قدم لي بطنه فبقرتها بالسكين ثم رقد في شرفة المئذنة ليمنحني فرصة كاملة.

قال جاد الله بهدوء:

- هل تعرفين لماذا جئنا هنا ؟

- نعم، سوف تقتلونني، لكنى أرجوكم أن تتخلصوا من جثتي تمامًا.

وضع أخوها رأسها في حجره، وارتفع نشيجه وهو يقبض على رقبتها.

جذبتها من يده، صائحة:

- لا أريد دموعًا.

خنقها حتى جحظت عيناها، ثم قعد يتنفس بسرعة وكان قلبه يقفز ليحافظ على حياته.

كان جابر كالمخدر، يرى قاربه البعيد يتأرجح، ويسمع صوت مخلوقات الماء بوضوح.

أراد أن يفتح فمه فلم يستطع، حاول النهوض فتمردت عضلاته واسترخت.

جاء دور جاد الله فأخرج من حقيبته منجلا مسنونا وحش كومة كبيرة من البوص، ثم وضعوا عليها الجثة.

انتزع اللثة بكامل أسنانها و حلق الشعر الطويل الملتف في الطرحة.

انطلقت ألسنة النار تأتى على الوليمة، وفاحت رائحة الشواء، لكنه كان ماكرا فوضعها تحت الريح، وبدأ يتلقى الشحم في طبق كبير.

ساعتان من الوهج والرجال صامتون مقطبو الوجوه، يمسحون جباههم من العرق ويسدون أنوفهم حتى لا تشم رائحة البطلة.

في النهاية بقي بعض العظم فالتقطه، وقام شقيقها بجمع الرماد من بين البوص المحترق ونثره في البحيرة.

بعد أن استيقظ، سيرته قدماه إلى النقطة ليكاشف صديقه المقدم بما رآه، تغلب عليهما بعد خطوات، وقف ينظر إلى

يمامة تخترق البلدة بالطول، ووجدها تشبه ابنة خالته حين رقدت فى حديقة الليمون،

هز رأسه حتى لا يتذكر ما نغص عليه حياته، وخفضها وذهب إلى مقهى الجسر، انتحى جانبا وقطب جبهته حتى لا يقترب منه أحد.

ماذا ستقول للمقدم حلمي ؟

إنه مجرد حلم نهاري نتيجة الغداء الدسم المؤلف من ثعابين السمك.

البوليس لا يعترف بالأحلام، لابد من جثة وشهود

فكر طويلا فى مغزى الحلم، ولما ضاق بعجزه قال ببساطة:

-ربما أتأخر في الفهم، لكنني أحصل على بغيتي في النهاية.

وصل إلى نتيجة مؤداها أن يحتفظ بالسر، فطلب شايا بلا سكر وبحث عن الشمس فرآها بعيدة تقترب من البحيرة، ابتسم وتخيل نفسه تحتها في قاربه، تحدث كثيرًا معها.

وقعت عيناه على محمدي بائع السمك، كان صامتًا يتنقل بحرص بين منضدته وبرميله.

اكتشف أنه يشبه إلى حد كبير إحدى سمكات البوري، التي تأخر في إحضارها للمقدم حلمي المفتون بها.

سيسرح غدًا ويفاجئه بوليمة.

لو أراد لحلمه أن يذرع البلدة كلها في نصف نهار، فليقصه على محمدي الذى منعه المقدم من التلفظ باسم سكينه وكاد يعلقه عاريًا في النقطة ويغرى به العساكر والمخبرين، ليشرحوا جسده !

عندما كان يصل مع أحد زبائنه إلى طريق مسدود في البيع والشراء يقول بصوته المجلجل:

-انتظر حتي تعود سكينه، ساعتها سأوافق على ما تقترحه من سعر

استدعاه النقيب حلمي وعنفه:

- هل تريد إشعال النار في القرية ؟

رئيس مجلس القرية أرسل له من يطرده من المكان، لكنه ذهب إليه وبكى:

- من أين أطعم أولادي ؟

قال له ساخطاً:

– تركناك سنوات تطعمهم بلا رخصة ولا تسعيرة، وقد امتلأت بالأموال وصرت أحد أثرياء شرشيره، أغلق فمك ولا تعرض الأمن للخطر.

بعد تلك الحادثة استطاع أن يجد لنفسه مستحيلا يعلق عليه البيع، فأصبح يقول لمن يعرض ثمنًا بخسًا:

– حين يبيض الغراب

أرسل نظرة إلى موسى الصائم فتجاهلها وأعادها إليه، اغتاظ قليلاً وهمّ بالاقتراب منه وركله، لكنه سيطر على نفسه.

عندما استمع إلى حكمة المقدم حلمي في مسألة الاختفاء، دُهش فى البداية وهو يقول:

– سكينه ستكون بطلة السلام.

كان البحث عنها يومها على أشده، ونشط التلصص والتنصت والقفز على الأسطح وسؤال العجائز والمتخلفين عقليًا والأطفال.

بل تنكر السكاكرة في هيئات باعة خضروات، وأدوات منزلية ولم يتركوا شبرًا في القرى والمدن القريبة والبعيدة،

كانـوا ينتظـرون حتـى تتزاحـم عليهـم السـيدات، فيحكـون حكايـة الشـيخ سـعد والفتـاة التـي قتلتـه وفضحتـه.

عندمـا ينتهـون مـن القـص يخرجـون صورهـا ويعرضونهـا، لكـن أعـين السـيدات تتحـير ويقمـن بهـز رؤوسـهن.

لم يستطع ذهنه أن يهضم تلك الحكمة، قال معترضًا:

- السكاكرة لم يعد لديهم عمل سوى البحث عنها.

- سوف أشرح لك نظريتى فى وقت آخر

كلامـه يقـف طويـلا خـارج عقلـه، لكنـه فى النهايـة يدخـل أعماقـه، ويقـضى عـلى قلقـه، قـال لـه جابـر في نهايـة الحديـث:

- كنـت أظـن حكمتـك تتوقـف عنـد إنقـاذ الصابونـة مـن قـشر السـمك.

كان يضحـك مـن قلبـه ويتفـرس فيـه كأنـه لم يـره مـن قبـل، ظـل النـاس يخترعـون روايـات عـن رؤيـة سـكينه، فتشـتعل قلـوب السـكاكرة وينسـلون كالوحـوش:

فقـد رئيـت مـن قبـل مسـعود القبـلاوى وهـو يصطـاد بجـوار مـصرف الغـول وكانـت ترعـى الغنـم، ورؤيـت مـرة أخـرى في عزبـة درينـه تتسـول وفى عزبـة فلفـل تغنـى وفى مدينة كفـر الشـيخ تبيـع المناديـل.

عندما هبط المساء، عافت نفسه المقهى والبيت،

حاول أن يصعد السطح ليؤذن، لكنه تراجع،

أدى الصلاة في المسجد وحمد الله أن الشحات غائب،

خرج وتوقف قليلا، ثم استقر رأيه على السهر مع المقدم حلمى.

***

فاحت رائحة ولاء كجثة فى قبر مفتوح، بسبب انتقالها إلى الشقق والدكاكين وركوبها التكاتك حتى حافة البحيرة.

وقد يفعت شهرتها بتواتر الحديث عن توهجها الدائم، وقدرتها الفائقة على ادخال الذكور إلى عالم لم يحلموا به من قبل

شرشيرة معروفة منذ القدم بغلبة الشهوة لكن ولاء تجاوزت السقف القديم رغم ارتفاعه.

وقد تناولت بعض المقالات العلمية هذا الموضوع بإسهاب، وتوصلت إلى أن تكرار التغذية على الكائنات البحرية يؤدى إلى هياج متواصل وبذلك تكون البحيرة متهما رئيسيا في إفساد الأخلاق بكثرة أكل السمك.

يفسر ذلك ما فعلته ابنة الحدايدة، لعلها لحظة جنون جنسي انتابتها ناحية القتيل فجعلتها تأتى فعلا لم يطلب منها.

يفسر كذلك ما يشيعه الدكتور محمود العزبى في المدينة القريبة، من أنه ابتكر عملية جراحية تتعلق بالفضائح سجلها باسمه في دوريات الجراحة هي:

عملية شرشيره.

يقول الدكتور العزبى إن متوسط العمليات التي يجريها لأهل القرية دون غيرهم من سكان العزب الثلاثين الذين يترددون عليه، هو عشر عمليات في العام.

وأنه ابتكر قطعة من اللدائن تدعم العضو المهيض وتعيده إلى شبه حالته الطبيعية.

الهياج الدائم هو ما جعلهم يطلقون على الهالوك الأحمر الطويل الذي ينمو على حواف حقول الفول، قضيب الأرض، بينما يسمى في العزب المحيطة كلها بالشمعة.

لا تزال حكاية الخفير ششتاوى إحدى أهم صفحات الملف القذر، وقد قرأها المقدم حلمي حين تسلم أوراقها من المركز ضمن عدة قضايا كعينات على تطور الجريمة.

كانت جناية ششتاوى و جناية سعيدة زوجة الفشنى مفزعة،

لدرجة أنه لم يستطع النوم ثلاثة أيام.

بقيـة صفحـات الملـف الأخـرى مألوفـة تتحـدث عـن تجارة مخـدرات تجلـب مـن البحـر عـبر البحيرة.

أبطالهـا اعتزلـوا الآن وصـاروا أصحـاب حلقـات سـمك يتنقلـون بسـيارات خاصـة. بينـما يشـغل أبناؤهـم مناصـب عليـا في النيابـة والقضـاء والبـترول ويقيمـون في الإسـكندرية والقاهـرة.

تتحـدث أيضًـا عـن معـارك وإصابـات مـن أجـل الـري، والاختـلاف عـلى الحـدود والنوافـذ والشـوارع، والمماطلـة في دفـع الحقـوق.

ظـل طيـف ششـتاوى الخفـير يناوشـه، كأنـه كان رئيسًـا للنقطـة أيامـه، وشـهد الوقائـع بنفسـه.

رآه وهـو يجـذب عـرق الخشـب الـذي يسـند سـقف الـدار الصغـيرة، فيخـر فـوق المـرأة وأطفالهـا الخمسـة ليتحولـوا إلى لحـم مفـروم تحـت الـركام.

كان ينـام في القيلولـة ويسـترجع القصـة فقـرة، ففقـرة، ويدهـش مـن ذلـك الرجـل الجـرئ الـذي كان يـترك دركـه ويدخـل إلى المـرأة المتزوجـة مـن رجـل غائـب في البحـيرة بسـلاحه.

يتجنب أجسادا خمسة ملقاة على الأرض.

يتسلل بعد منتصف الليل في أيام ليس فيها كهرباء، والليل صاحب سطوة.

لا زال يذكر اسمها: نعيمة، واسم زوجها خليل البابلي.

لم تكن تأخذ منه نقودا لأنه يحميها، هناك غيره ممن يواعدها ويعطيها.

وفى تلك الليلة الشتوية المحمومة قابلها عند الكوبري وطلب منها أن تترك له الباب مواربًا.

هزت رأسها وأخبرته أن زوجها آت بعد العصر.

صدقها في البداية، لكن الفأر لعب في عبه، وجعله يرابط منذ المغرب في مكان يرى فيه الداخل والخارج.

لم يطل انتظاره ولمح شبحا يعرفه، اشتعلت فيه النار، وظل يغدو ويروح كالمجنون.

حاول أكثر من مرة أن يخزى الشيطان من أجل زوجته وأولاده الذين سئموا من حماقاته.

قال لنفسه إنها مجرد عاهرة، وما الضرر أن تتركه ليلة أو حتى أسبوعا ترتزق فيه ؟

نقل قدميه خطوتين وأدار ظهره للدار الغارقة في الظلام، لكنه رجع وتسلق السطح كالهر.

هبط في وسط الدار حيث اللمبة الصغيرة في كوة تحاول أن تعيش بفضلة الكيروسين.

أمام باب الغرفة الوحيدة التي دخلها عدد شعر رأسه، وتعوَّد أن يتجنب الأجساد الخمسة الملقاة في الأرض.

ألصق أذنه وتناهت إليه أصوات مبهمة متداخلة، استطاع أن يميز منها صوت نعيمة المشبوب.

وجد نفسه يتجه إلى العمود الخشبي الذي يسند السقف وبضربة واحدة من قبضته الجافة، زحزحه من مكانه في أرض الصالة.

وفى اللحظة التي فتح فيها الباب وقفز إلى الشارع، شعر السقف أنه حر، وأنه لم يعد ثمة شئ يجبره على البقاء.

سقط من المنتصف ثم تبعته الجهة اليمنى واليسرى.

الصفحة الثانية التي علقت بذهنه وأفسدت عليه القيلولة جريمة قتل يوسف الفشنى زوج سعيدة التي ظلت تستقبل الرجال بمسكنها في حماية الزوج نفسه، ما عسى أن يفعل رجل مريض بالطحال ويحتاج طعامًا ومعسلا؟

هي توفر له كل ما يحتاجه، عليه فقط أن يقابل الزبائن بوجه طلق. .

هكـذا مضـت الأمـور، لكـن سـعيدة لسـبب مجهـول منعـت عنـه النقـود في ذلـك اليـوم الأغـبر.

طار عقله من قلة المعسل،

فقبـض عـلى رقبـة زبـون سـاقه حظـه التعـس محـاولا خنقـه، كان شـابًا عفيًّـا فتملـص منـه وكتـم أنفاسـه حتـى مـات.

هـذا عـصر ولاء زوجـة جـاد الله، شـقيق جابـر القـوى الذي يوقـف السـيارات ويـضرب المـؤذن ويحطـم حلقـة السـمك لكنـه يجبـن عـن قتـل امـرأة أخيـه الخائنـة.

جـاد الله دبلـوم معهـد فنـي تجـارى، موظـف بالوحـدة المحليـة لقريـة شرشـيره، يضـع فـوق مكتبـه كومـة مـن الكتـب، لا يـكاد يرفـع رأسـه عنهـا إلا ريثـما يوقـع ورقـة أو يسـجل شـيئًا فى دفـتر مهـترئ.

يقـول انـه الوحيـد الـذى يضـع يـده عـلى علـة شرشـيره، وفى نفـس الوقـت عـلى علاجهـا الناجـع.

إنه مثل زوجته يعيش حياتين:

حيـاة معلنـة كرجـل ثـوري يسـاري مثقـف، يعتنـق الاشـتراكية.

حياتـه الثانيـة خفيـة مـن وجهـة نظـره، لكنهـا مقـروءة مـن الكافـة كالكتـاب المفتـوح. هـو صديـق الأغنيـاء وضيـف سـهراتهم، فـلا يـكاد يقـضى ليلـة مـع زوجتـه وأولاده الثلاثـة: ولـدان وبنـت.

يتغدى وينام ثم يستيقظ عصرا فيختفي في حي الحدايدة .

ولاء مثلـه، تعيـش النهـار كسـائر النسـاء، تطبـخ وتغسـل وتعتنـي بأطفالهـا وتتحـدث مـع جاراتهـا عـلى المصاطـب.

لكـن الليـل يحمـل لهـا قـوة تتملكهـا، فتخـرج كالعاصفـة بـلا ملابـس داخليـة، وفى تلـك الأوقـات يتبخـر مـن عقلهـا الخـوف الطبيعـي فـلا تفكـر في شـئ سـوى الزبـون المنتظـر وكيـف ترضيـه.

يقـال عنهـا الكثـير، فقـد خلقـت للوقـاع، ويمكنهـا بسـهولة أن تمتـع قريـة بأكملهـا في الليلـة الواحـدة.

وصفهـا شـاب يجـرب كتابـة الشـعر بأنهـا ناعمـة كالزبـد ضيقـة كالخاتـم، سـاخنة كالكلبـة الحائـل.

مـن صفاتهـا العجيبـة، الغـيرة العميـاء مـن أي امـرأة يشـكرها الرجـال.

هاجت كلبؤة جريحة عندما سمعت أن أحمد السكري الذي اشتهته ولم تظفر به، ضبطه زوج امرأة عجفاء من القبالوه معها في حقل القصب.

أصيب الزوج بلوثة فمضى يخب في الشوارع ممسكا نصف ذراعه بيده، ليوضح للناس حجم طرف السكري العظيم الذي ظهر في العراء عندما فاجأهما.

كانت تروح وتجئ لا يقر لها قرار، كم حاولت جذبه وكم تجاهلها.

قالوا انه مغرور بالأفدنة العشرين، وبأنه وارثهم الوحيد بعد أن انحنى أبوه ولزم المسجد.

لم تتحمل النار المتقدة بين جنبيها وذهبت إليه قبيل المغرب وهو جالس تحت الشجرة في الجرن، ضحكت بصوت عال وهى تقول بدلال:

- أنت أعمى ولا شك، القبلاويه التي فضحت نفسك من أجلها، لا ثدي لها ولا مؤخرة!

لم ينظر إليها، خفض رأسه حتى انصرفت تزمجر.

دهش حينما رأى الشحات أمامه كأنه هبط من السماء، كان يعانى توترا في أعصابه عقب انصرافها، فلم يجد كلمة واحدة.

جلس على النجيل وركز عينيه المجهدتين عليه وقال بهدوء:

« يخشى عليك من عقوق والدك، فإنه يرفع وجهه نحو السماء ويشكو إلى الله، وسوف ينتهي تشردك قريبًا على صدر زوجة من بيت عريق بيننا وبينه ثلاث ساعات بالسيارة،

امرأة حرة تقرأ وتكتب وتعرف أسرار موائد الأغنياء، ستنقلك إلى حياة لا تعرفها وتجعلك ترتدى حلة كاملة وربطة عنق،وتطلق الجلباب، وسترزق منها بالبنين والبنات وسيحرم والداك من خيرك.

وعندما يجوعان سيهجم والدك على مائدتك فيخطف ديكًا روميًّا محمرًا ليضعه فى مقطف ويدور به على الدكاكين والمقاهي يصيح:

– هذا طعام ابني الوحيد الذي ورثني بالقوة فى حياتي، بينما أنا وأمه جائعين !

بعدها ستبيع الأرض وتركبك الديون،

فتهاجر إلى ملوي بالصعيد، هناك ستعيش وحيدًا فقيرًا، وستموت قبيل الخامسة والخمسين،

فيضطر أبناؤك إلى كسب عيشهم من محل بقاله يبيعون الجبن والزيتون، هنا في شرشيرة ستتوزع أرضك بين الدهماء وتصير بيوتا ودكاكين ومقاه «

غلى دماغه وأراد أن يهب فيلقيه في الترعة، لكنه خشى الثرثرة، فتح حافظته ورمى له ورقة نقدية كبيرة.

المقدم حلمي اهتز أمامها أكثر من مرة، اهتاج بما سمعه من المخبر

الذي قال له:

- جربت نساء كثيرات: سمراوات وشقراوات، نحيفات وبدينات، لم أصب مثلها أبدًا.

لم يخبره بخيبته وبكائه، وهدهدتها له كالرضيع.

أراد أن يأتي بها عندما تذهب زوجته وابنته إلى طنطا، سوف يستعين بالمخبر ليحضرها بالتكتك إلى شاطئ البحيرة في نهاية الليل.

راقته الفكرة وعزم على زيارة المغازى ليتزود ببعض العقاقير التي تعينه.

بعد تفكير قصير طرد الخاطر تمامًا،

من يضمن سكوت الثرثار؟

اكتفى باستدراج جبر، والتمتع بالتفاصيل الدقيقة التي يحرص على روايتها.

حتى البلاغ الذي كتبه محمود البوهى ضدها وضد المغازى، حفظه بلا مبرر قانوني.

***

منذ طارت البومة وودعته:

- لا أوحش الله منك يا شحات

دار في رأسه أنه يمتلك كنز. هل أتسلى به كما قالت ؟

كاشف زوجته المدرسة بالمدرسة الابتدائية بما جرى.

وجعلها تلمس الكتاب، وتدهش من لغته العجيبة.

شعرت بالزهو لهدية السماء، ونظرت في الأوراق، لكنها لم تستطع قراءة كلمة واحدة من الحروف التي تشبه أرجل الطيور.

ضحك بخيلاء وقال لها:

- لا يوجد في الدنيا من يستطيع قراءة تلك الطوالع غيري.

اتفقا أن تكون هي رسوله إلى السيدات والبنات، أما الرجال فسوف يهمس لمن يختاره.

بعد أن نام ليلتها فوجئ بها توقظه، لتسر في أذنه:

-ايمكـن أن تكـون مصائـر أهـل شرشـيره في هـذه الأوراق القليلـة.

- هذا ما تيسر، ولا يمكن زيادته.

- بل يمكن وبسهولة

سـمعت ولاء رذاذا يتناثـر مـن أفـواه النسـاء فعزمـت عـلى الذهـاب ليـلاً إلى الشـحات، ليـس لديهـا زوج يمنعهـا، أو حتـى يسـألها أيـن كانـت.

إنهـا تمتهـن أخطـر مهنـة، وحياتهـا كل ليلـة توضـع عـلى كـف عفريـت تخـرج غـير متأكـدة مـن العـودة.

كان الشـحات جالسًـا أمـام كتابـه، ابتسـم ونظـر إليهـا فأخرجـت النقـود.

قلب الصفحات ثم توقفت أصابعه:

- ولاء ابنة محبوبة وزوجة جاد الله شعبان

غمغم لنفسه بصوت خفيض:

- مـا دامـت موجـودة فى الطوالـع فهـي إنسـية وليسـت مـن الجـن كـما أشـاعوا،

بدأ يقرأ بصوت مرتفع:

«امـرأة بيضـاء اللـون، أكّالـة أمـوال الرجـال والشـباب، مُـدوّرة القامـة قصـيرة السـاقين واسـعة الصـدر، جيـدة في النـكاح حـارة الفـرج وربـما كان عـلى فرجهـا شـامة، شـعرها فيـه صهوبـة، كبـيرة الأنـف واسـعة الفـم. ..... «

رفعـت حاجبيهـا علامـة عجزهـا عـن الفهـم، فأخـذ يـزوم متجـاوزًا الوصـف المفصـل لجسـدها،

وحـين اصطـدم بمصيبتهـا صمـت تمامًـا، وقـرأ في سره عـدة دقائق.

شـعرت بالخـوف واصطكـت ركبتاهـا، وتخـلى عنهـا شـعور اللامبـالاة الـذي يصطحبهـا حـين تغلـق البـاب عـلى أطفالهـا النائمـين ولا تـكاد تعـرف نفسـها.

تسير فى شوارع مظلمة وتخوض حقولا ومصارف.

تنـام في فـرش متعـددة، وتتعـرض لمواقـف مخيفـة وتعـود في الغالـب فجـرًا، لكنهـا لم تتعـود أن تصطـك ركبتاهـا كـما تفعـلان الآن.

طـال صمتـه وجـاءت زوجتـه فرحبـت بهـا وابتسـمت لتخفـف سـخونة الجلسـة ثـم اسـتحثت زوجهـا:

- لخص لها ما قرأته بلغة سهلة تفهمها.

اعتدل وركن ظهره إلى مسند الكنبة وقال لها وهى ترتجف على الكنبة المقابلة:

-الله حليم ستار، لكنني حصلت على مال لأخبرك بما لدى.

وما ذنبك ؟ قل..

-مكتوب أنك ستذهبين للمغازى، وأنه سيموت بجرعة زائدة من أقراص منشطة، قابضا على شعرك.

لن يكون أمامك سوى الهرب، ولكن بعضًا من الشعر اللعين سيبقى فى يده وسيقودهم اليك.

لن توجه لك تهمة، لكن الجميع سينهشون سيرتك أيامًا وليالي.

وماذا عن جاد الله ؟

رمش بعينيه الكبيرتين وقال:

رغم أنك دفعت فقط من أجل نفسك، لكنني سأكرمك بالإجابة من صفحات زوجك.

تصفح قليلا ثم توقف وأمعن النظر وقرأ بعينيه فقط:

طويل القامة يميل إلى السمرة، كثير النقلة من مكان إلى مكان، يقوى بدنه في أول الشهر ويتوعك في آخره، يحب مسامرة الرجال، يغلب عليه البلغم فلا يغار ولا يثار. .....

غادر الصفحة التي تصفه وتصف أمراضه وأوجاعه، ووصل إلى المراد الذي تنتظره امرأته.

استغرق وقتا طويلا، ترك لولاء الفرصة لتفكر في لحظة موت المغازى.

كيف أذهب إليه بعد فضيحتي على يد زوجته الدمنهورية المتوحشة.

لولا أنها ألقتها على الأرض وكتمت صوتها وكادت تقتلها، لكانت قد زأرت كاللبوة الجريحة و جمعت شرشيرة كلها.

أثناء نزولها على السلم بوقار كأنها كانت فى زيارة، سمعت الدمنهورية تقول بحشرجة:

-كلب وكلبة

لكنها ضحكت بقوة عندما استحضرت صورة المغازى واقفا يتفرج وهى تنهال على رأسه بشبشبها، كأنه يتابع فيلمًا في التليفزيون.

إنه يتقن معاملة المرأة حتى لو كانت عاهرة.

ابـن المدينـة ودارس الصيدلـة، لم تنـس أبـدًا عطـره الـذي ينعـش قلبهـا، وكلماتـه الهامسـة الحلـوة.

حتـى ملابسـه الداخليـة نظيفـة غاليـة ناعمـة لا تقـارن البتـة بملابـس صيـادي شرشـيرة وموظفيهـا وعمالهـا، التـى تضطرهـا إلى سـد أنفهـا في أغلـب الأحـوال.

وترقـد كالذبيحـة تغـلي مـن الغيـظ، تسـب نفسـها وتتحداها إن عـادت، لكنهـا في مسـاء اليـوم التـالي تخـرج كـولاء أخـرى تتلـذذ بالعفـن.

انتهـى الآن الشـيخ الشـحات مـن قـراءة مـا يخـص جـاد الله وتأهـب ليخبرهـا بأسـلوبه البسـيط:

– سـيترك جـاد الله شرشـيره إلى الأبـد ولـن يدفـن فيهـا ولـن يعـرف لـه قـبر في أي مـكان مـن الأرض حيـث سـيلغى مـن عقـل أتباعـه فكـرة دفـن الجسـد وتركـه مرتعًـا للـدود.

بـل سـيحرق في احتفـال يليـق بـه وينثـر رمـاده عـلى الحقـول ليتحـول إلى محاصيـل وزهـور وينتفـع بالعظـام والأسـنان والشـعر.

سـوف يهاجـر إلى بـراري البحـيرة ويغـرى شـبابًا رباهـم ومنحهـم كتبًـا تقـول إن العـالم حـدث صدفـه ولا يوجـد إلـه يشـغل نفسـه بنـا.

هنـاك سـوف يجعلهـم يبنـون أكواخًـا مـن الطـين والبـوص حتـى إذا هدمتهـا الحكومـة يكـون مـن السـهل إعادتهـا.

سـيقومون بإصـلاح الأراضي الزراعيـة وتنصيـب الأمنـاء عليهـا، وعـلى المـواشي والإبـل.

سـوف يشـكل لجانـا لتطبيـق نواميسـهم عـلى كافـة خـيرات دولتهـم، حتـى إذا ما ذبحت شـاة يتسـلم العرفاء لحمهـا ليفرقوه عـلى مـن ترسـم لهـم و يدفـع بالـرأس والأحشـاء و الأطـراف إلى غـير القادريـن عـلى العمـل لكـي يتقاسـموها بالتسـاوي.

ويفـرق الصـوف عـلى مـن يغزلـه ثـم يدفـع إلى مـن ينسـجه ويصنـع منـه الملابـس، كـما تصنـع منـه الحبـال.

أمَّـا الجلـد يسـلم للدباغـة يصنـع منـه النعـال للمواطنـين تجمـع كل هـذه الخيـارات في خزائـن تحـت إشراف جـاد الله، ثـم يـوزع كل حسـب حاجتـه.

تتكفـل القيـادة بإصـلاح المنـازل وترميمهـا وتقديـم العـون المـادي للـزوار و القادمـين إلى المـكان.

كل أدوات الحرف توزع على الحرفيين مجاناً

للمـرأة دور هـام و إيجـابي، وكـي لا تثـير الغـيرة فـإن تبـادل الزوجـات سـيكون أمـرًا عاديًّـا.

عندما انتهى وطوى الكتاب شعرت أنها لم تفهم شيئًا، أو ربما لم تحرص على الفهم لأنها لم تجد نفسها في صفحاته الطويلة.

كانت تتوقع وجود تكملة لحادثة المغازى، انسلت كدأبها عندما تدخل أو تخرج. كانت أعمدة الكهرباء السليمة تومض في وهن، بينما وقفت المعطوبة كالمردة المتحفزة.

ستدور وتتلوى وتنحرف لتدخل أماكن سرية لا تخطر ببال شرشيرة العجوز. هناك تعوض رجالها عما تشتعل به دماؤهم منذ رأوه في الأفلام الإباحية، فالزوجات يؤمن أن استخدام أعضاء أخرى غير عضو العفة، من شأن العاهرات فقط.

***

كان جابر يجلس على جزيرة دشيمى تحت خيمة صنعها من الشراع والقارب بجواره يتأرجح.

في زمتة الظهر يتغدى خبزًا وجبنًا وطماطم وبصلا، بينما الشبكة منصوبة وبعد انكسار الشمس سوف يخرجها بالرزق المقسوم.

هنا يمنح نفسه الحرية في التفكير، يجلدها أيضا بكل قوته، قد يبكى أو يضحك، فالجزيرة خاوية إلا من أطلال وعصافير غبراء تتقافز، وسحالي تزحف.

يحب الوحدة، ولذا اشترى قاربًا وانعزل.

القوارب مليئة بالرجال من حوله، وهو بلا رفيق.

ربما نعتوه بالجنون، لكنه مستريح، وهل يوجد في حياة الإنسان أثمن من الراحة؟

لم يجدها أبدًا وسط الصيادين، أولئك الصنف من البشر الذين يتجردون من ملابسهم ببساطة، ويمسكون بعوراتهم متبا هين .

كم قضى ليال يقاوم الطبيعة التي تلح لطرد بقايا الهضم، إنهم يتخلصون منها جهارًا، وبكل حرية.

تذكر حين كان طفلا يلهو ويتبرز بجوار الحائط مع رفاقه. لم يكن الحياء قد نضج بعد، كانوا يجلسون للتبرز ويتحدثون ويضحكون، ويتركون أذاهم بعضه مثل البيضة المقلية وبعضه مثل العصيدة وبعضه الآخر مثل الثعابين الصغيرة.

الناس يتوحلون فيه وتتناثر اللعنات من أفواههم، بينما تتصاعد الروائح اللعينة تخنق الشارع. لكنه الأن نضج حياؤه.

لا أحد بمنجى من رؤية مؤخرته تلقى القاذورات فى ماء البحيرة، وهو لم يستطع تحمل ذلك.

هل يخجل الرجال ؟

سؤال كان يطارده طول الوقت، ولم يكن يملك إجابة.

أراد أن يتغلب عل خجله وامتدت يده تنزل السروال، لكنها تجمدت وظل يعانى حتى قفز على تبة منعزلة وسط الماء وأفرغ بطنه.

يعود واضعًا عينيه فى الأرض كأنه ارتكب جرمًا.

لماذا حكم على الإنسان بهذه المهانة؟

إنى لا أعرف القراءة ولا الكتابة، لكنك برحمتك وضعت في قلبي ذرة فهم.

كل شئ هنا مكشوف، داعر.

الآن هو وحيد وحر، يتجرد ويستحم ويتبرز دون أعين جريئة تتلصص.

وجد نفسه يذهب إلى القارب ويحضر كتاب محو الأمية التي انقطع عن الذهاب إليها.

لم يفلح أبدًا في فك رموز تلك الحروف التي تشبه الطلاسم، والتي جعلت جاد الله يجلس مع الأعيان ويعمل في مجلس القرية ويقرأ كتبًا مجلدة وجميلة.

شعر بدموعه توشك أن تنطلق، رفع بصره إلى السماء وقال:

يا رب أرسل لي وليا من أوليائك يعلمني.

نظر بعيدًا عند الأفق، كان الهواء ساخنًا يصفر كالطيور، وكانت أصوات الصيّادين تأتيه لا أثر فيها لتفكير أو تأمل.

انتظر الولي يهل عليه طائرًا.

سيجلس معه على القارب، وفى لمحة واحدة ستتحول تلك الطلاسم إلى كلام مفهوم.

لم يظهر أحد وثقلت جفونه فنام.

كان يحلم أنه غلام يرقد على ظهره في فلوكة كبيرة خوفا من رفاقه المنتظرين أن يوليهم مؤخرته، وكان صوت الضفادع واضحا في الحلم.

لم يكن يعرف أن المقدم حلمي في الطريق إليه، حيث جلس قليلا في فناء النقطة حتى وصل السائق وأخبره أنه عاد بابنته نسمه من مدرسة المدينة.

اعتصرها كما يفعل يوميًّا وانفلتت منه مرهقة فيما زفر كل قلقه واسترخى قليلا،

جذب نفسًا من السيجارة، وغفا قليلا في مقعده لكن صوت الغربان أفزعه.

أراد أن يصرخ في العساكر والمخبر، ويكرر ما قاله لهم حول استخدام الذخيرة الميرى.

لم يجد لديه رغبة في الحوار معهم، نادي السائق الجالس هناك في مدخل النقطة وأرسله لإحضار أحمد القبلاوى من الحقل.

جاء يحمل بندقيته التركية، وصوب ناحية الغربان المتراصين فوق شجر الكافور، قال له المقدم:

لم تستطع إصابة البومة التي كانت تصرخ فوق أطلال المئذنة.

ابتسم، واقترب من غراب سقط على الأرض يرفرف بجناحيه ويصيح بوهن.

كان قد أكمل اصطياد ثلاثة منهم، أشار له بالكف عن التصويب، فحمل صيده وقال قبل أن ينصرف:

- ومع ذلك تأتيني البومة في الحلم وتبشرني

- بماذا ؟

- لا أدرى

تحركت آلام ظهره بعداء شديد، وضع يديه على الجزء الأسفل المعطوب، وفكر فى العودة إلى البيت ليتناول الدواء، لكنه لعن الطب والعلاج وسحب يديه محاولا النهوض، ثم نادي السائق وهمس:

- شاطئ البحيرة

عندما وصل، قفز في أحد القوارب، وتناول المجدافين بمهارة ثم أسرع نحو الجزيرة يتحدى آلامه.

نادى بأعلى صوته على جابر.

مزق صوته ستائر النوم، فهب مذعورا، وجلس يفرك عينيه.

لا بد أنه اشتاق إلى البوري، لكنه قليل هذه الأيام، وقد كاد يختفي من البحيرة أيضًا سمك موسى والبياض واللوت.

سمع من المثقفين أن البحيرة تلوثت منذ جفف نصفها، وتركزت فيها سموم الصرف البشرى والزراعي.

نظر إلى القارب والشبكة وتمنى أن يجد بها ما يرضى ضيفه.

لم يكن بها سوى بوريتين تلمعان كالفضة، قابلهما لمعان عيني المقدم حلمي، خلصهما ببراعة وجمع الحطب ثم

وضع قطعة الصفيح المعدة لهذا العمل، طقطق الحطب ولم تمض لحظات حتى قفزتا إلى أعلى وهبطتا عدة مرات، ثم استكانتا إلى ما يراد بهما، وفاحت الرائحة التي تنعش المقدم، فتشممها بلذة عارمة وكاد ينسى هلعه على ابنته وما يتردد عن مذبحة الانتخابات.

قطع أوصال السمكتين ولحس شفتيه وهو يلقى القطع البيضاء الناصعة في فمه.

هذه حسنة شرشيرة الوحيدة، ودائمًا يتخيل نفسه

منقولا وقد خسرها إلى الأبد.

شرب الشاي واسترخى فوق العشب الذي يخفى تحته على عمق سحيق مدينة كانت على حافة البحيرة منذ زمن بعيد.

خفت حدة الألم شيئًا ما وشعر بالرغبة فى السكون،

الصمت هنا لغة معتمدة، جابر واقف في الخدمة:

-هل أعد مزيدًا من الشاي؟

رفض بإشارة من ذراعه وتابع شرشيرة صغيرة قفزت فى البوص كالسهم.

ضحك جابر نصف ضحكة،

فجأة امتلأ ذهنه بما أذاعه الشحات عن مذبحة الانتخابات، وازدادت خوفا لأن الوقت يجرى، لم يعد باقيًا سوى ثلاثة أسابيع .

وهل يستحق هذا الأحمق قلقك وتوترك، لقد ملأ القرية كلاما سخيفا، لم يتحقق منه شئ،

إننى كرجل أمن لا ينبغي أن أترك مسئوليتي للظروف.

فجأة قال جابر:

- ربما لا يكون لدى حسك الأمني، لكنني منذ اليوم الأول لظهور هذا الصخب، رفضته وغيرت طريقي من أمام بيت الشحات

تعجب من قراءته لمخاوفه، وقال:

-ألا ترى أنه يمكن استغلال أقواله كذريعة لإشعال الحرب مرة أخرى ؟

-أوافقك.

-إذن لا بد من الاستعداد .

-وكيف؟

-سأكتب لرؤسائى

-أرى ألا تذكر الطوالع، لأن ذلك يعنى تقصيرًا ما،

هز رأسه معجبا وقال:

-سأكتب فى محضر التحريات،

نما إلى علمنا أن مجموعة من شباب السكاكرة يأسوا من العثور على سكينه قاتلة سعد السكري،

ومن ثم اشتعلت نفوسهم وأغرى بعضهم بعضا، لارتكاب أعمال قتل وحرق يوم الانتخابات، والأمر مفوض لسيادتكم.

عاد الصمت يتحدث، لا يخدشه إلا نقيق ضفادع وزقزقة طيور وطنين مخلوقات.

القارب يتأرجح وجابر يجلس القرفصاء سارحًا في أشياء كثيرة، لا يدرى كيف تسللت بينها شهد ابنة خالته.

ظهرت على سطح أفكاره حين حدق في آخر قطعة من ملابسها وحين هجم عليها في حديقة الليمون وحين أرجع محتويات معدته، وكره نفسه ورقد كالميت.

أزاحها بحدة وكاد يلقيها في الماء، مفسحا المجال للشحات الذي يلعب بالأهالي لكنها جاءت ثانية، تزغرد وتصيح:

- لم يعد في شرشيرة رجل سواك يا جابر يا ابن خالتي.

كيف صبر عليها ؟

أفاق من شروده فوجد المقدم حلمي يطلق شخيرًا عاليًا.

***

اشتاقت ولاء للمغازى وانتابتها رغبة طفولية أن تختبر حديث الشحات الذى دفعت من أجله.

لن تجازف بالذهاب إلى الصيدلية، فزوجته الدمنهورية الشرسة دائمًا تطل من البلكونه لتراقب كل شئ .

كتبت ورقة لأحد أطفال الشارع وأعطته جنيها ليقبل توصيلها:

«جبان تنسى ولاء خوفا من عدة ضربات بالشبشب، ماذا ستفعل إذا علمت أن البومه أكدت موتك حين تستقبلنى في شقة دسوق؟ «

حين قرأها ابتسم وظهرت أسنانه الصغيرة البيضاء ووقف بقامته المديدة وقميصه الأبيض الأنيق ليكتب لها الرد.

« قابليني في شقة دسوق يوم الجمعة الساعة الرابعة».

قلب شفته سخرية كما يفعل عادة في مثل تلك المواقف.

كنا عصر الأربعاء، بقى الليل ويوم الخميس ونصف الجمعة.

لم أدخل شقة دسوق منذ عام، شقة شرشيرة فوق الصيدلية كانت أقرب.

حذرها عقلها بغتة، هل تذهبين بقدميك إلى مصيبتك؟

تحنين إلى السرير المتوسط من خشب الزان المطلي باللون الأبيض الهادئ، والمشجب البني المرتفع بفرعيه، ثم الستائر الزرقاء فوق النافذة التي تملأ الغرفة بأصوات الباعة وحوذيي الحناطير والأطفال المشردين.

تلقين بنفسك في مسرح الجريمة حتى تكتمل ويسهر الصيادون في المقهى ليتحدثوا عن المغازى الذي مات وهو مع زوجة جاد الله.

انتابها الضحك وتخيلت زوجها يهز كتفيه ولا يعلق كأن الحديث عن امرأة خيالية.

رغبتها تدفعها كما تدفع الريح أوراق الشجر الساقطة.

ركبت إلى دسوق وعند المفارق هبطت لتركب سيارة توزع الأغراب على الشوارع.

من النافذة غامت الصور وتداخلت وغلى دماغها حتى وصلت إلى مطلع الكوبري المعدني المعلق فوق شريط السكة الحديدية،

والـذي يربـط الشـارع الرئيـسي بشـارع سـعد زغلـول، المكتـظ بالمحـلات والمطاعـم والمقاهـي والمـارة.

في نهايتـه مسـجد سـيدي إبراهيـم الدسـوقي، لـو خرجـت بسـلام سـتزوره وتبكـى مـن الإرهـاق.

عندمـا تحركـت في أول الشـارع لمحـت سـاعة كبـيرة عـلى واجهـة محـل لـلأدوات المنزليـة.

كـم حدقـت فيهـا وتأملـت زخارفهـا وعقاربهـا التـي لا تهمـد. فوجئـت أنهـا معطلـة، العقـارب نائمـة مجهـدة.

أسرعـت ودخلـت العـمارة الشـاهقة، وقفـزت الـدرج حتـى الـدور الثالـث. وقفـت أمـام الشـقة الصغـيرة وجالـت في حـروف اللافتـة النحاسـية:

« محفوظ المغازى، صيدلي «

ضغطة واحدة لزر الجرس وفتح الباب.

كان يرتدى روبا مفتوح الصدر ويسير حافيا.

تنـاول يدهـا وقادهـا إلى الصالـة وجلـس بجوارهـا عـلى الأريكـة الأنيقـة المغطـاة بقـماش أزرق.

مـد يـده ففـض لفافـة فـوق المنضـدة، بـدت قطـع الكبـاب والكفتـة والمقبـلات، وأطلقـت روائحهـا الشـهية.

تناولت قطعة بلا دعوة، تلوكها على مهل لتطرد قلقها.

المغازى كعادته، يبتسم ويصفر بفمه لحنا مبهجا ويأكل بنهم دون أن ينطق.

لا تدرى ما الذي وضع تلك الكلمات على لسانها لتقول:

-هل ستموت بعد قليل ؟

ضحك عاليا وتبع الضحكة ببصره كأنها تصعد إلى السقف لتختبئ فيه.

قال بارتياح:

-ما المانع، مادام وجهك آخر ما ستراه عيناي.

احتواها الخجل، وجاهدت لتقول جملة تمحو بها حماقتها،

لم تجد ما ترد به، وهيمن صوت المضغ مختلطا بجلبة الشارع. وبدا مشرق الوجه، لم يتأثر بما قالت.

إنه ساحر ومثير للفرح كأمراء الحكايات،

وهى تذوب فى ضحكاته كما يذوب السكر فى الشاى. تذكرت الشاى

فقامت ترفع البقايا، وتضع الماء على نار البوتاجاز في المطبخ، ترقب الماء المغلي يعلو ثم يهبط ويزمجر في حركة دائبة.

شربا وتحدثا، همس لها وسط ضحكات صاخبة،

أن زوجته بعد أن كلت من ضربه بالشبشب، وقفت أمامه تحملق فى عينيه كأنها تبحث عن شئ مفقود،

ولّما يئست من العثور عليه سألته بحرقة:

ما الذى تتميز به تلك الكلبة ؟

ووجدتنى بلا أدنى ترتيب أقول متوقعا مزيدا من الضرب:

-لم يخلق من هذا النوع سواها

لم تضربنى، وتركت الشبشب يسقط، وتعلقت عيناها بفمى متحرقة لمعرفة المزيد، لكننى لذت بالصمت، فدخلت فى نوبة بكاء طويلة، وذهبت أنا لأنام.

أسكرتها كلماته، فلم تعد تحس بوجودها، وأغمضت عينيها كما تفعل حين يقبلها.

قادها من يدها إلى الفراش، فأفاقت؛ لأنه

طبقا لكلام الشحات، سيحتضر على صدرها، ويجز بعضا من شعرها، فتهرب تاركة الدليل في يده.

لم تشهد المغازى أبدا بهذه الرقة والنعومة، يبدو اليوم كعاشق يلتقي بأول امرأة خفق لها قلبه.

هــو حبيبهــا وليــس زوج الدمنهوريــة الشرســة، وهــى حبيبتــه وليســت زوجــة جــاد الله، بــل إنهــا لا تعرفــه، ولم تنجــب منــه ثلاثــة أطفــال يتــشردون حاليًــا في الشــوارع إلى أن تعطــف عليهــم زوجــة جابــر شــقيقه فتقــدم لهــم الطعــام والــشراب.

حسدت الساعة المعطلة فوق المحل،

حاولــت اســتعادة كلام الشــحات عــن جــاد الله فلــم تجــد لديهــا ســوى تبــادل الزوجــات، ضحكــت وســألت في دلال:

-ما معنى تبادل الزوجات ؟

أجابهــا الصمــت المطبــق، ففتحــت عينيهــا مذعــورة، هــل جــاء الليــل وهــى ذاهلــة ؟

ها هو النهار بعافيته خارج خصاص النافذة.

لم يداعبهــا ويحتويهــا ويهمــس فى أذنهــا بعباراتــه التــى تشــبه العســل، والتــى لا يعرفهــا رجــال شرشــيره.

ولم يقبض على شعرها ويجز خصلة منه.

نظــرت إلى وجهــه، كان مغمــض العينــين، يســبح في بحــر آخــر.

أجفلــت ونادتــه عــدة مــرات، ثــم حركتــه فلــم يتحــرك. حركتهــا قــوة الخطر فمســحت كل شــئ نالتــه يداها،كــما تعلمت

مــن الأفلام،ســحبت الكيــس الموضــوع فى قلــب صنــدوق القمامــة، وتخلصــت منــه عــلى قمــة الشــارع .

***

يومان تنتظر، وتفزع لأقل نبشة دجاجة أو مواء قطة.

أزفــت ســاعة انتشــار الخــبر، لأن الرائحــة ســوف تتكفــل بالعثــور عــلى الميــت في شــقة صغــيره بشــارع ســعد زغلــول بدســوق.

ظنــت في البدايــة أن موتــه سيكتشــف مبكــرا، حيــث ســتقلق الدمنهوريــة وتبحــث عنــه.

اليوم فقدت حماسها، وهاتفها سعيد الزقلوط معنفا.

لا يريد أن تتوقف أعماله ساعة واحدة.

قالــوا لــه إنهــا منــذ يومــين ليســت تلــك الفــرس التــي تجمح بهــم في طــرق وعرة.

بــل تبــدو معهــم كإحــدى نســاء شرشــيرة المصلوبــات في المطابــخ وأمــام الغســالات والأفــران.

تنهدت طويلا ولم ترد وأغلقت الهاتف في وجهه.

اعتقدت أنها ستستريح بعدما تخلصت من كل آثار الطعام في الشقة ومسحت بفوطة مبللة كل مكان لمسته.

لكن وقوع البلاء خير من انتظاره.

سوف يذهبون به إلى المستشفى وتأتى إشارة إلى المقدم حلمي، فيخبر الدمنهورية ويرتفع صراخها وصراخ جيرانها.

قفز قلبها كالكرة في قدم طفل عندما أدركت ضرورة انتداب الطبيب الشرعي لتشريحه.

هذا الجسم الجميل النظيف يمزق ويخيط كالثوب القديم.

ستكون أول من يطلب للنيابة.

لتتماسك وتنكر تماما أي علاقة به، أو معرفة بأن له شقة في مدينة دسوق.

لا ينبغي أن تضعف أو تتردد مهما مارسوا عيها من ضغوط.

عندما تأتى النتيجة بأن بصماتها غير موجودة، سيفرج عنها.

سوف يطلبون جاد الله بالتأكيد، هي واثقة من صلابته وقدرته على مواجهة وكيل النيابة والصمود أمام هجماته:

-زوجتي سيدة فاضلة ترعى بيتها وأطفالها. وهى من عائلة عريقة في عزبة الديب.

-ألم تلاحظ أي اعوجاج في سلوكها؟

-لا زوجة صالحة لا غبار عليها.

-أين كنت الساعة الرابعة يوم الجمعة الماضي.

- أقيل في البيت.

-وزوجتك؟

-نائمة بجواري.

لابد أنهم سيحققون مع الشيخ الشحات حيث رأتني العيون أدخل منزله:

-لماذا زارتك ولاء في بيتك؟

-جاءت تعرف طالعها ؟

-وهل تقرأ الطالع ؟

لست أنا ولكنها البومة التي. ...

أشد ما تخشاه جابر ذا القلب الميت والأفعال التي لا يمكن التكهن بها، لاخوف من أهلها البعيدين في عزبة الديب منوفية.

خامرها شعور مباغت شديد القوة في أن تمر من أمام الصيدلية المغلقة.

تريد أن ترى السكون الذي يحيط بالمكان قبل أن يتناثر.

هبت كالمجنونة وتركت قدميها تسيران بها.

لمحت بابيها من بعيد مفتوحين، وبعض الزبائن في الداخل.

ضغطت على قدميها فأسرعتا لتمر مباشرة أمامها.

كان المغازى واقفًا بقميصه الأبيض النظيف وقامته المديدة يناول أحدهم علبة دواء.

فى المساء أرسلت ابنها بورقة كتبت فيها:

« قط بسبعة أرواح »

رد عليها بورقة أخرى كتب فيها:

« ذئبة غادرة »

لم تفهم بالضبط ما يعنيه، وضعتها في حمالة صدرها، لتعرضها على أحد المثقفين، حين رآها وفى أعلاها إعلان لدواء ابتسم وقال لها:

– المغـازى يتفلسـف، الذئبـه عندمـا تنتشـى تعـض ذكرهـا بقسـوة، وقـد تقـضى عليـه إذا لم يسـارع بالهـرب.

***

أبلـغ المخـبر المقـدم حلمـى أن عـددًا مـن أبنـاء القريـة يهاجمـون الشـحات فى صفحاتهـم عـلى الشـبكة، ويتهمونـه بإثارة الخلافـات التـي خمـدت وبلبلـة خواطـر النـاس، بـما يذيعـه مـن دجـل منسـوبًا إلى بومـة كانـت تـصرخ فـوق المئذنـة.

معظـم التعليقـات كانـت تنحـى باللائمـة عـلى الأمـن الـذي يتغافـل عـما يحـدث حتـى تشـتعل شرشـيرة نـارًا، كـما تغافـل مـن قبـل عـن الـذي يجلـس عـلى المقهـى ليـوزع عاهراتـه بالهاتـف.

صاح في وجهه:

-كفى

كل شئ هنا يحمل رائحة الفجيعة.

لسـت مرتشـيا، أشـاعوا أن جابـر شـعبان يهدينـى مقاطـف مـن البـورى، مـع أننـى أعطيـه أكثـر مـن حقـه،

دفعـت للشـحات أيضًـا كأي صعلـوك، مقابـل أن يمـلأ قلبـى بالرعـب.

إنهم فى الداخلية يفضلون الهدوء والمحافظة على الاستقرار، ثم إنني لم أتلق أي بلاغ ضده. لا مناص من القيام بحركة تعتقل الألسنة.

في نحو الحادية عشرة مساء اصطحب المخبر وجندي مسلح وخرج معهما. ممسكا بظهره، حدثه الطبيب فى الزيارة الأخيرة عن شكوك تساوره، وصمم أن يجرى أشعة مقطعية على الظهر.

هذه الآلة تشبه القبر وتملؤني بالتشاؤم، لن أدفن سوى مرة واحدة، أعرف أن علتى من ارتفاع نسبة الرطوبة.

نحن نعيش فى مستنقع.

كانت الشوارع فى قلب القرية شبه مظلمة وقليلة الحركة، لن يقابله أحد من الفلاحين الذين يسهرون في بيوتهم، ولا من الكبار أصحاب المنادر المكتظة بالأقارب والأتباع ،

كان مقهى الصيادين لا يزال عامرًا، والمقاعد في الشارع، أصوات ملاحاه وشجار وضحك تقابله من بعيد.

عندما اقترب هب الجالسون، وانتظروا أن يقبض على أحدهم أو يعنف صاحب المقهى وربما طردهم جميعا وأجبره على الإغلاق.

انكمش سعيد الزقلوط كالقرموط الهارب،

وتوقع أن يزجره أو يسبه أو يوحى للمخبر أن يجره من قفاه إلى النقطة.

حاول أن يطمئن نفسه،

فقد استدعاه عدة مرات وبدأ الحوار عاصفًا، ثم رق وتشعب حول عاهرات القرية وصفاتهن وتمهل طويلا حول حديثه عن ولاء وابتلع كلاما كاد يقوله، ثم صرفه.

استراح عندما رآه يسرع بعيدا ناحية المزارع حيث تتناثر بضع بيوت.

أثناء هرولته تخيل الضابط أنه لمح شبح ولاء تختفي فى إحدى الثنيات المؤدية إلى حقول منبسطة.

توقف قليلاً، وكاد ينحرف خلفها، لكنه سار في طريقه مبلبل الأفكار.

وصل الآن إلى بيت الشيخ الشحات. كان أحد غلمانه على الباب فصاح به لينادى أباه.

خرج مرعوبًا، وشعر أن تطورًا مخيفًا وقع.

ليس هذا وجهه الذي جاء به من قبل يسأل عن طالعه.

هل سيقبض عليه ويفضحه أمام الأهالي؟

بسرعة البرق ومضت عدة حلول للأزمة:

ليحدثه عن قصيدة تبع وحكاية الثور الذي قال الحمد لله، فإن لم يقتنع يلقى إليه بما قرأه عن نبوءات نوسترادموس التي يعتز بها الأوروبيون، ويسترشدون بما ورد فيها حتى يومنا هذا.

بل إن فريقًا كبيرًا من الباحثين تخصص في فك رموزها.

هكذا نحن، نقتل كل وردة تزهر، لماذا لا يصور المكان الذي أملته فيه البومة وينشر في جميع أنحاء العالم؟

ستكون شرشيرة عندئذ خبرًا أول في النشرات واللقاءات، وسيأتي السياح والباحثون بالآلاف ليروا الكتاب ويتعرفوا على اللغة التي كتب بها، وتنتعش البلدة الخاملة.

ركز الضابط بصره في الرجل الخائف وقال له آمرًا:

-هات الكتاب

وقف حائرًا وطفرت دمعتين من عينيه.

- هيا، وإلا أمرت بتفتيش البيت. لا زلت أحترم عمامتك التي أهنتها بأفعالك.

-سيدي، دعني أخبرك بحكاية الثور الذى . ..

-لن أستمع إلى حكايات.

أدرك أنه من الحكمة إحضار الكتاب، سيما أن عددًا من الفضوليين يقفون بعيدًا.

***

انشغل جاد الله بصفحات شعب شرشيره على الشبكة. نقلت كلها ما حدث من المقدم حلمي، وكيف صادر كتاب البومه وطالب معظمهم إدارة أوقاف دسوق بوقفه عن العمل، فلا يجوز لدجال أن يعتلى منبر رسول الله.

ابنه الأكبر طالب الثانوي رد عليهم بكلام أملاه عليه أبوه، فيه قصيدة تبع وحكاية الثور ونبوءات نوستراداموس.

ابتسم كبير الحدايده أبو الفتوح حديد وقال:

-ضربة معلم يا حلمي

علّق جاد الله:

-أن تأتى متأخرًا خيرًا من ألا تأتى أبدًا،

نحـن في القـرن الحـادي والعشريـن، ويمكننـا التحـدث إلى أصدقـاء في ألمانيـا وأمريـكا، كأنهـم يجلسـون معنـا، ثـم نجـد متعلمـين يذهبـون إلى بيـت المخـرف.

قال إبراهيم القبلاوى:

-الجميـع ينتظـرون الـشرارة بعـد ثلاثـة أسـابيع، حـين يـأتي المرشح.

قال جاد الله:

-أجـزم أنـه لـن يحـدث شـئ، وأجـزم كذلـك أنـه سـيخدع النـاس بـكلام جديـد

كاد ت تنفلـت منـه عبـارة: لـن تهـدأ القريـة حتـى تنسـف جبانـات القتـلى المليئـة بالـشر، ثـم تحـرق عظامهـم وتلقـى فى البحـر

ابتلعها بصعوبة.

سعد الله حديد الضرير قذف طوبة في المجلس:

-لماذا لا نضع احتمالا لوقوع المصيبة، ونستعد لها.

سرح جـاد الله ولم يعـد يـرى شـيئًا ممـا يمـر أمـام عينيـه في شاشـة هاتفـه.

أمَّا المقدم حلمى فقد عاد إلى المنزل يحمل تحت إبطه الكتاب، كأنه سيطير إذا أعطاه للمخبر.

وضعه فوق المنضدة فى الصالة وفتح باب نسمه برفق، لم يشأ إزعاجها بإضاءة الغرفة ووقف لحظة يستمتع برائحة أنفاسها فى الظلام، ثم أخذ دشًا وعاش دقائق كالعادة كلما وقف تحته مع أمه ثريا هانم ونام.

كان مرهقا ورأسه ثقيلة فأعطى ظهره لزوجته الغارقة فى النوم منذ صلت العشاء.

لا يدرى لم بدأت تتململ وتخبره برغبتها فى الانتقال إلى طنطا، مدته تسمح بالعودة إلى مدينته، لكنه لم يسمع ذلك منها من قبل!

هل أحست بما يعانيه منذ قرأ له الشحات تفاصيل مصيبته ؟

فجأة وجد نفسه يبكى ويشد شعره ويضرب الأرض بقدميه والأثاث بقبضته حين جاءه السائق ووقف باكيًا:

-سيدي انتظرت نسمه هانم فلم أجدها عاجله بضربة فى بطنه ألقته أرضًا يعوى.

جرى دون أن يعرف إلى أين، طاف شرشيره كلها، فتح أبواب السكاكرة والحدايدة والقبالوه، ودخل المدرسة والصيدلية ووصل إلى برارى البحيرة.

الدنيا فارغة لاأثر لبشر، فيما لم يلتق بواحد منهم فى البيوت والمسجد والدكاكين، وصل إلى الحقول فى الجنوب واخترقها كحصان جموح وبدأ يصرخ وينادى على ابنته.

أخيرًا شاهد الشحات يخرج من

الحقل الذى حدث فيه البومه، هجم عليه، لكنه كان يبتعد حتى يصير مجرد نقطة، ثم يقترب حتى يوشك أن يلمسه.

وقف حائرا يرتعش والعرق ينبجس من جبينه وبطنه وظهره وتحت إبطيه اقترب الشحات منه وابتسم:

- ابنتك فى مدينة أبيس التى تعيش فيها سكينه ابنة الحدايده.

الأن يطير بلا جناحين ويرى القرى نائمة لا تدرى ما يعتمل فى نفسه.

استجدى قوته ليصل فى أسرع وقت، وبلا وعى هبط أمام مدينة كبيرة يكسوها ضباب الصباح فتظهر كتلة واحدة تغط فى النوم.

سار ينادى بكل طبقات صوته ويوقظ الناس:

- يا أهل أبيس ابنتى نسمه الوحيده التى تشبه الوردة الشابة، خطفت وجلبت إلى مدينتكم من فضلكم دلونى

عليها أنا المقدم حلمى ضابط نقطة شرشيرة ابن ثريا هانم التى أورثتنى قلبها الرقيق،

فلم أفلح فى ضبط الأمن ولا فى حماية ابنتى. فوجئ بمجموعة مألوفة الملامح تحيط به، قال لهم:

- كأنني أعرفكم

-كيف تشك فى معرفتك لنا، نحن شباب السكاكره جئنا نبحث عن سكينه التى أختفت هنا بموافقتكم

- كلا، صدقونى لا أعرف شيئا عن هذا الأمر، وقد أبلغ أهلها عن اختفائها فى حينه، لكن التحريات لم تصل إلى شئ

- دائمًا لا تعرف، انك لا تعرف سحن أهل قريتك،

حين كان العمده السكرى يحكم شرشيره، لم يجهل شخصا صغيرًا أو كبيرًا.

ابتلع المقدم حلمى ريقه بصعوبة وأحس بالعجز وحاول أن يسترضيهم فقال:

- أعترف أنني قصرت، لكنى أعدكم بالتغيير، ساعدوني الآن لأعثر على ابنتى. رمقوه بازدراء وانصرفوا، فصرخ:

- يا أهل مدينة أبيس الكرام.

استيقظت زوجته على ندائه، وساعدته على الجلوس.

كان عائما فى عرقه، أضاءت الحجرة وأسرعت إلى المطبخ فأحضرت كوبًا من عصير البرتقال وسقته بيديها.

جلس يرتعش وقد زحفت البرودة إلى أطرافه وكأن روحه تنتزع تدريجيًّا، وكان ظهره متصلبا كقطعة خشب محترقة.

- ماذا جرى ؟

-كابوس.

فتحت المصحف الموضوع بجواره، بدأت تقرأ بصوت هامس ويدها على رأسه

أغمض عينيه كما كان يفعل عندما تهدهده أمه وتتخلل شعره بيدها وهى ترقيه من العين.

هاهو مرشح الحزب الوطني يقف فى الشارع الكبير وقد اجتمعت شرشيره وتركت البيوت والمقاهي.

هو يقف مع جنوده الذين استدعاهم من دسوق وتركهم يجوبون القرية ويفتشون البيوت بينما اعتلى بعضهم المئذنة ويده على مسدسه فى الجيب الخلفي.

لمح جابر القوى بجوار المرشح، ابتسم له.

بـدأ سـالم رشـاد يتحـدث لكـن طلقـا ناريـا جـاءه مـن الخلـف واخـترق ظهـره، ومـاج النـاس فى بعضهـم كـما يحـدث فى أفـلام المعـارك.

لم يعـد يميـز الضـارب والمـضروب، أخـرج مسدسـه وأطلـق فى الهـواء وطلـب مـن الجنـود أن يطلقـوا أيضـا، لكنهـم تجاهلوه وضحكـوا فى سـخرية، مسـتمتعين بالقتـال الحـا. سـمع أحدهـم يصيـح:

- سـكينه ابنـة الحدايـده التـى قتلـت الشـيخ سـعد وفضحت عورتـه تعيـش فى بيـت الضابـط حلمى.

حـاول أن يرفـع صوتـه فلـم يخـرج وانطلـق يجـرى خلفهـم قبـل أن يصلـوا إلى بيتـه. كلـما أطلـق الرصـاص يسـقط عـلى الأرض،

ولا يصيبهم كما حدث للقبلاوى الذى فشل فى إصابة البومة.

وصلـوا قبلـه واقتحمـوا وكـسروا البوابـة ودهسـوا أحـواض الورد،

كانـوا يعرفـون طريقهـم إلى حجـرة نسـمة، ألقـى بجسـده فوقهـم، لكنهـم داسـوا فوقـه وحملـوا البنـت الـوردة وخرجـوا بهـا ليفضحـوا عورتهـا، كانـوا يصرخـون كالحيوانـات:

- وجدنا سكينة.

صرخ:

نسمه نسمه

هبت زوجته ثانية وأسندته ومسحت عرقه، لم يستطع الاستمرار فى الكتمان قال بخوف:

-لقد أحضرت كتاب الشحات.

قفزت من السرير وتهدّج صوتها مهددة:

- لن يبقى فى بيتى لحظة، وإلا سأخرج إلى الشارع وأصرخ بكل قوتى.

كنا فى الهزيع الأخير من الليل، فحمل الكتاب بهدوء وقرر أن يضعه فى النقطة حتى الصباح.

عندما سار فى الشوارع الخالية تحرَّك ذهنه فى اتجاه آخر، سوف يعود إلى الشحات ليوقظه من النوم، ويعيده إليه.

***

لم يقف الشحات في صف الزبائن، بل تسلل من خلف على البنا المنهمك في اغتراف الفول من القدرة وإلقاء الطعمية ثم انتشالها بالمصفاة من الزيت.

جلس على منضدة مخصصة للغرباء الذين يأكلون في المطعم، وسرح في تهاويل السقف، ثم أرسل بصره يتفحص الواقفين في انتظار دورهم لتكتمل مائدة الإفطار.

معظمهم يتوقون إلى زيارته ومعرفة ما ورد عن أيامهم القادمة، منهم من قعدت بهم جيوبهم الخفيفة، ومنهم من لم يمتلكوا الشجاعة لكشف الغطاء.

كانت شهد ابنة خالة جابر شعبان تقف في صف الحريم المجاور، تراودها منذ أيام فكرة الذهاب إليه.

الآن اكتمل المبلغ المطلوب معها، وصارت جاهزة لتجلس تحت قدميه وتسمع وتستفسر، لكن حظها العاثر جعل الكتاب يضيع.

لماذا أفرغ جابر معدته عندما استسلمت له،

هل شعر بالقرف لأنها لم تعترض ؟

وهل كانت تملك إرادتها في تلك اللحظة التي خدرها بنظراته وأمرها بالنزول،

عندما علمت بمرضه ذهبت إلى خالتها لتطمئن وحملت معها فاكهة وسكر، لكنها لم تجرؤ على الدخول إليه، ورجتها ألا تخبره بقدومها.

لقد صفعها فى عمق قلبها ولا زال أثر تلك الصفعة يؤلمها رغم انصرام السنوات لكنها تزداد حبا له، ورغم أنها تزوجت ودخلت الدوامة لسنوات طويلة، ثم ترملت.

هل ستجد في كتاب البومة إجابة للسؤال المعتق، وهل سيذكر أنها تعذبت بسببه وتصورته وهى في أحضان زوجها،

وكانت تترصده وتطمئن عليه، وتعرف إذا كان في البحيرة أو عاد.

رؤيته تكفيها وتخفف قسوة الصفعة.

كانت تتعلل بالفول والطعمية عندما تسمع أنه أوقف السيارات أو تشاجر أو جلس في المقهى، وكانت تعضده بالزغاريد والكلمات المغموسة بالصبر.

هل قالت البومة للشحات إنه لم يلتفت إليها مرة ولم يرد على كلماتها، بل كان يحرقها بنظراته ويغمغم بغضب ؟

ليتها استدانت وذهبت من قبل.

فجأة انتابها القنوط وهبط الدم إلى قدميها.

من أدراني أن البومة اهتمت بامرأة مسكينة مثلى،

لست من الحدايده ولا السكاكرة، أرملة مكسورة الجناح، ادخرت مائتي جنيه من بيع بيض الدجاج.

الذين وردت سيرهم في كتاب الشحات هم من الكبار والأبطال الذين ترتبط حياة شرشيرة بهم.

لم تكن تعرف بالطبع أن ولاء زوجة جاد الله ذهبت إليه ووجدت اسمها بين الأسماء، وسمعت ما كتب عنها.

ومضت في ذهنها فكرة جعلتها تهدأ بعض الشئ،

ما الذي جعل الشحات يدخل المطعم؟

بعد أن نفد ما في القدر ونفدت عجينة الطعمية وخلا إناء المخلل، جلس على البنا يلتقط أنفاسه ويتفرس في وجه الشحات الممتلئ بالحديث.

لم ينتظر حتى يستريح وبادره:

-تأخرت كثيرًا

عن معرفة دورك المعتبر في نهضة شرشيره. أنت من سيبنى اقتصادها، وينقلها من قرية حطمها الثأر والفساد، إلى مدينة زاهرة يقصدها الناس من كل فج عميق.

ابتسم الرجل النحيف ذو العينين المعطوبتين، وفركهما ليتفادى شعورًا بالحرقة بداخلهما، ثم قال متهكمًا:

- ضاع الكتاب وما زلت تحفظه !

انطلقت ضحكة عالية وقال الشحات:

-الكتاب عندي، لم يقض في بيت الضابط سوى ساعات، ثم جاءني وعاد إلى مكانه بكل احترام.

-كيف ؟

-لم يستطع الرجل النوم أو الاستقرار، لم يكن أمامه سوى إعادته.

إنه كتابي ولا يمكن لأحد غيري أن يقتنيه.

عاد يفرك عينيه، وفيما يتحرك ذراعه بلا وعى،

هب الشحات واقفًا وهو يقول:

-لا ألومك إذا لم تصدق، لكن الماء يكذب الغطاس. تقديرًا لجهدك القادم مع أهل بلدتك سأقدم لك عرضين لم أقدمهما.

حتى لجابر الذي سيقود شرشيره سياسيا:

الأول مادي بحت، حيث سأعفيك من الدفع المعجل وسأتقاضى أتعابي فولا وطعمية وجزرًا وليمونًا وخيارًا وباذنجانًا مخللاً.

الثانـى: معنـوي صرف، وفيـه سـأتخلى عـن حـذري مـن قـوم خطريـن، وسـآتيك بالكتـاب لـتراه رأى العـين وتلمسـه بأناملـك في بيتـك، ثـم أقـرأ لـك طالعـك الـذي هـو في الحقيقـة طالـع شرشـيره السـعيد.

اندفـع خارجـا، فقامـت شـهد الجالسـة تنتظـر بجـوار محمـدي بائـع السـمك، الـذي رفـع صوتـه العريـض الأبـح وقـال:

-البورى المعتبر.

أسرع هاربًـا مـن المـكان وكاد ينسـى حكمتـه ويواجهـه بالمـرض الجلـدي الخطـير الـذي سـيصيبه حتـى يتناثـر الـدود منـه،

ويأنـف أقـرب النـاس إليـه مـن رائحتـه ويخشـون العـدوى، فيعيـش وحيـدا منبـوذا مطروحـا عـلى قارعـة الطريـق،

لا يقـترب منـه أحـد، فيضطـر إلى الزحـف عـلى بطنـه كالثعبـان المريـض، ليلتقـط أوراق الخـس والفجـل والكـرات والجرجـير وقشـور البطيـخ. تجلـد وابتلـع لسـانه، لكـن شـهد لحقـت بـه وأوقفتـه بيدهـا:

-هل صحيح أن الضابط أخذ منك الكتاب؟

أشار إلى محل على البنا قائلا وهو يوسع خطواته:

-سلي بائع الفول والطعمية.

-وهل عثرت على اسمى فيه ؟

-اسمك ورد لارتباطه بزعيم شرشيره ومحررها من الجفاء.

***

بينما الشحات يسير ببطء في حي الصيادين ليلاً وليس لخطواته صوت اصطدم بولاء.

كانت تسير بحرية بعباءتها السوداء الواسعة.

كالسبع الذي عثر على فريسته، قبضت على رقبته، وصاحت بلا أي اعتبار للنائمين أو ربما المارة في هذه الساعة:

-إذا لم تعد لي نقودي التي ربحتها بعرقي، فسوف أقتلك وأمضغ خصيتيك وأبتلعهما.

ارتجف وتثاقل تنفسه وكاد يتهاوى، أخرج حافظته بصعوبة وألقى لها ورقتين من فئة المائة على الأرض.

تركته وانحنت تأخذهما فأطلق ساقيه، وسمعها تقول ضاحكة:

-ذهبت إلى المغازى في دسوق وهاهو كالقرد في الصيدلية

اضطر أن يعود تاركًا مسافة معقولة بينهما، بحيث لا تتمكن من الوصل إلى خصيتيه:

-نقودك عادت إليك، دعي الملك للمالك. وهل حددت لك موعدًا لهلاك المغازى ؟

الكتاب لم يحدد وقتا إلا لقتل سالم رشاد وتجدد الحرب بين الحدايده والسكاكرة،

ثلاثة أسابيع ليست زمنا، وبعدها ستندمون على تكذيبى وستجلسون فى انتظار مصائركم.

عاد يسرع نحو بيت على البنا وطرد القلق بصعوبة، .

تشاءم من كل شئ، واستعاد أيام السعادة قبل أن يلقى إليه هذا الكتاب، كان يتنقل كالفراشة بين مراقد آل البيت،

يأكل مع الآكلين وينام في شوارع وأرصفة وفنادق رخيصة وبيوت أصدقاء ومريدين.

الأيام التي يقضيها في شرشيره لم يكن يبرح مكتبته الضخمة إلا قليلا.

امتلأ حسرة لأنه لم يجن شيئًا ذا بال سوى التندر والسباب والتهديد.

كنت قارئًا نهما ولديك مواهب سردية تظهر في أحاديثك وخطبك ودروسك. لو عالجت كتابة الرواية فلربما وجدت لك مكانا محترما وسط الروائيين.

لم يتمكن من التراجع فقد وصل أمام باب على البنا، وضع الكتاب أمامه وجعله يلمسه بيده ويتحسس صفحاته ويحدق في حروفه، ثم أخبره بما

يختبئ خلف أيامه:

«فسوف يأتيك شاب من دمياط، طويل القامة، ضيق العينين، سريع الاهتياج، سريع الرضا، يسعد الآخرين ولا يسعد نفسه،

شأنه شأن النحلة تجوب الآفاق وراء الرحيق، وتهلك نفسها لتنقل أكبر كمية إلى خليتها، ثم يأتي النحال في الخاتمة ليجنى العسل، اسمه مشتق من السعد وكنيته الدمياطي.

هو نحلة حياتك، يهل بالخير والسعد بلا حيلة منك ولا إعداد، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء،

فهو يرزق الدودة العمياء في الصخرة الصماء، اختارك ربك ليرتزق منك المئات وتلهج بالدعاء لك ألسنة الزوجات والأمهات.

سيختصك الغريب بسره وحرفته، وسيعلمك قلى المشبك المضنون به على غير أهله.

لن تهدأ العربات والمسافرون إلى شرشيرة لتحمل بالأقراص التي تفيض عسلا.

وستصب الأموال في شوارع القرية صبًا، فتتغير وتبدل ملابسها وتصير مدينة تبرق ليلا ونهارًا. ستحبه وتزوجه ابنتك.

لكنه لن يعمر إلا بقدر ما يعلمك ويعلم أولادك، ويلقى بذرته في رحم زوجته وهى حكمة بالغة تحار فيها العقول فرب ساع لقاعد.

سيكون ابنه ولدا لك، وسيتعلق قلبك به حتى يغار أبناؤك، ويكيدون له، هنا لن تتحمل وستدرك بحكمتك أن الكثرة تهزم الشجاعة،

فتتغلب على قلبك وتفسح المجال لعقلك،

ستخرجه من بيتك مع أمه، وسيقيمان على حافة المزارع المؤدية إلى عزبة معاطى، لتبدأ الثورة الصناعية في المنطقة كلها.

ستتحول الدكاكين والمقاهي والبيوت إلى ورش للخرط واللصق بالغراء والتنجيد والتلميع.

وستودع مدينة شرشيرة الصناعية عشرة الفقر الطويلة المقبضة.

لن يصرخ بعدها محصلو الماء والكهرباء ولا الغاز، مهددين بقطع الخدمة ولن تعاود السيدات تربية الدجاج في الأخنان وانتظار البيض، وصناعة أغطية رأس الرجال.

سوف يصدر أثاث شرشيرة المتميز إلى قبرص ودول المغرب العربي وبلاد الشام والسودان وتمبكتو وبلاد الحبشة وبلاد العجم.

عربات ضخمة مغلقة ستقضى الليل في المدينة ليقوم العمال فجرًا بتجميلها، ثم تنطلق. لن يكون بد من بناء فندق ضخم يحمل خمس نجوم، تعمل فيه مضيفات شقراوات وسمراوات وشباب تخرجوا في أعظم جامعات العالم ويتقنون كثيرا من اللغات.

سيعيش على البنا حتى المائة وتكون أيامه هادئة رخية، يجلس مستمتعًا بمشاهدة أولاده الذين يسعون كالأقمار. وسيموت قرير العين شبعانا ريانا

وسبحان الحي الذي لا يموت. «

***

بعـد أن اسـتمع اهتـزت أعصابـه، لكنـه كرجـل حـازم لـن يـترك نفسـه لفرحـة غـير مؤكـدة.

ليعتبرهـا بشـارة وقـد سـمع في إذاعـة القـرآن الكريـم حديثـا للنبـي محمـد صـلى الله عليـه وسـلم يقـول:» بـشروا ولا تنفـروا»

غلبه الفضول فسأل الشحات:

-لا أظن جابر يأتيك.

-لن يأتي، لكنني أرسل رسائلي إليه بلا انقطاع.

-وماذا لديك عنه ؟

-عنـدي الكثـير، وقـد بحـت بأقلـه ولا بـأس مـن البـوح بالمزيـد:

جابـر منـذور للتغيـير السـياسي ومدينـة شرشـيرة تسـتحق قائـدا مـن طينهـا، عـرض نفسـه للخطـر مـن أجلهـا واسـتوقف رتـلا مـن سـيارات الأكابـر الذيـن يطئـون الغلـمان والعجائـز ولا يتمهلـون لتنتفـع البلـدة منهـم.

إن محمـدي فقـد صوتـه وهـو ينـادى عـلى أسـماكه دون أن يحركـوا سـاكنًا أو يهبـط واحـد منهـم ليرضيـه بالـشراء.

يرشـقون الجالسـين عـلى المقهـى بنظـرات حـادة عدائيـة لا مـبرر لهـا.

عندما تجمع شرشيره أمرها وترشحه، سيبدأ عصرها الحر، لتدير ظهرها لمحترفي الانتخابات الذين يعدون ولا يفون، وسيكون عمله الخالد الذي تذكره الكتب لسنوات طويلة أن يطرد جاد الله وزوجته.

سوف ينجح باكتساح ويحمله الناس على أعناقهم، وستسمعون اسم شرشيره في مجلس النواب كل يوم.

-ما هذا الدجل؟ إن جابر لا يقرأ ولا يكتب.

-هذا ما ترونه في الظاهر، أما الحقيقة المحجوبة

عنكم أيها المساكين، فهي أن الخضر عليه السلام استمع إلى بثه وحزنه في البحيرة، حين شكا إلى ربه احتقار جاد الله له واتهامه بالأمية، قال

: يا رب أريد أن أتعلم وتنطق الحروف على لساني لأعرف مبتدأ العالم ونهايته وأقرأ تلك الكتب التي يتفاخر شقيقي بها.

سأقرؤها لأقترب منك، لا لأبتعد عنك وأجدف في وجهك وأقول إنك تتدخل في حياتنا بلا حق، هذا ما يقوله أخي الأكبر الذي أوصاه أبى به.

وما إن أتم كلامه وانتهى من نظامه حتى

وجد رجلاً معه على الجزيرة، لا يعرف من أين جاء.

أخبره أنه الخضر أرسله الله له. كان يأتيه كل يوم بعد الفجر، فيعلمه حتى صلاة الظهر، وكان علمه ينقش على قلبه.

وفى نهاية الشهر قال له:

-وداعًا يا عبد الله فاننى مسافر إلى حرم رسول الله وسوف أبلغه سلامك، وأبشرك أنك من الذين لبوا وراء إبراهيم يوم نادي بالحج،

كنت لا تزال في عالم الدود، لكنك أسرعت هاتفا بلغتك:

-لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك، لا شريك لك.

وصيتي أن تلقى بالكتب التي تحوى علمي والتي نقشت على قلبك وختمت بالختم الإلهي، إلى ماء البحيرة.

عندما اختفى انخرط جابر في بكاء مر كيوم أودع أبوه روحه في يد الله وأغمض اغماضته الأخيرة.

بعد وقت طويل لا يحدده، قام إلى الكتب فقبّلها وتشمم رائحة صديقه ثم ألقاها طائعًا، فصعد إلى السطح صندوق من أبنوس، فتح بابه فالتقط الكتب، ثم غاص إلى القاع.

لا بـد لجابـر أن يخفـى كرامتـه وبعيـش نكـرة بـين النـاس، وهـذا قـدر العظـماء.

لكنـه يكثـر مـن المكـوث في البحـيرة ليقـرأ ويكتـب بعـشر لغـات وهـو الوحيـد الـذي يمكنـه قـراءة كتـاب البومـة.

-ولماذا لا يدرك بعلمه أن كتابك صادق ؟

-هو الآن في مقام أعلى ولا حاجة به لكتابي،

لكننـي أود أن يعـرف أبنـاء شرشـيرة طرفـا عـن بطلهـم الـذي تعـده السـماء ليعيـد الصـورة الباهتـة إلى سـابق جمالهـا وبهائهـا.

***

انتظرتـه شـهد حتـى ملـت، وأفرغـت صبرهـا دموعًـا أمـام زوجتـه ثـم انصرفـت.

حين عاد قالت له الزوجة:

-الوقـت يمـر، لم يتبـق الكثـير عـلى زيـارة المرشـح، ولا دليـل حتـى الآن عـلى صـدق مـا تقـول للنـاس.

-النسـيان منعنـي مـن سـؤال البومـة عـن وقـت حـدوث كل طالـع.

-ألا توجد وسيلة للاتصال بها ؟

-لقد ودعتني وقالت لي، لا أوحش الله منك.

-هي بالتأكيد تعرف حاجتك إليها الآن قبل أن يفلت الزمام.

-سأذهب يوميا بعد الفجر إلى الحقل، وسأبقى حتى يؤذن لصلاة الظهر.

-وبقية اليوم يجب أن تخصصه لإقناع المزيد من الناس.

-اقترب ممن وردت أسماؤهم، واستخدم ثقافتك في جذبهم، ولا تنسى أن لديك أخبارا عن شركة البنجر.

-وهل يهتم مديرها بمصير الشركة؟

إنه موظف لا يعنيه سوى قبض مرتبه آخر الشهر.

-كأنك قرأت كل الكتب المرصوصة في مكتبتك لتمضية وقت الفراغ،

أضف واحذف واخترع، لا تخبره أن الكتاب تحدث عن الشركة، بل تحدث عن المدير، أعطه كلمة أو كلمتين عن ترقية كبيره، ربما تصل إلى الوزارة، وستجده يطاردك ويتخفى ليصل إلى بيتك. اختصر الحديث، وركز على اللب دون القشور، لا تذكر له لون شعره وعينيه والوحمات المختفية بين وركيه

-هل أدخل بقدمي في وحل الدجل والكذب؟

-إذا كان ضميرك قد بدأ يؤلمك، فاذهب إلى المسجد واصرخ في الناس:

-أنا كاذب وأفاق، البومة لم تطلب منى أن أخبركم بشئ،

أعطتني الكتاب لأقرأه وأتسلى بالعبر الواردة فيه، ثم أوصى به لأولادي عسى أن يخرج منهم روائي يسلى الناس، في هذه البلدة التي تتسلى بالفضائح.

-أفكر أن أترك الكتاب في نفس المكان الذي أملى على فيه.

-لا مفر من إكمال الطريق، إننى أحدث زملائي في المدرسة عن الضابط الذي أعاد إليك الكتاب فجرًا.

-لو نجحت في استمالة محمدي بائع السمك فسوف أحقق تقدمًا هائلاً.

إنه بوق شرشيره الذي يسمع صياحه في البلاد المجاورة.

-اشتر منه واجلس معه ولا تعرج على طالعه حتى ينضج.

-أفكر في أن أكلمه رمزا، لقد تذكرت ما قرأته عن وحى مدينة دلفي في اليونان القديمة.

كانت الكاهنة تهمس بكلام ملغز لكل من يطلب وحيها،

منه الوحي الشهير الذي سبق الحروب الفارسية، حين بعث أبناء أثينا بسفرائهم إلى دلفي للسؤال عما يمكنهم عمله، فجاءهم الرد على النحو التالي:

ويحكم لا يوجد أمل! وبقي السفراء هناك للحصول على رد أفضل.

وأخيرًا نصحتهم بايثيا بالاختباء وراء الجدران الخشبية.

فعادوا إلى ديارهم يحكون رؤوسهم ويتناقشون حول ما يعنيه أبولو. حتى خرج رجل الدولة الأثيني يقول:

-ما يعنيه أبولو هو أنه علينا مغادرة المدينة، والبحث عن سلامتنا في أسطولنا الخشبي، وهذا ما فعلوه حين تسلحوا بالأسطول وقاتلوا الفرس في البحر.

-وكيف ستخبره رمزًا بما سوف يصيبه من مرض معد يجعل أقرب الناس يأنفون من مخالطته.

-ربما أستعير قصة نبي الله أيوب وأقول له إن الشيطان لما رأى حسن عبادته قال لله سبحانه وتعالى:

سلطني على جسده وسوف يجدف

فقبل الله تحدى إبليس لعلمه بصلابة إيمان عبده النبي،

ولما سلط الشيطان على الجسد الطاهر نفخ فيه وجعله يشتعل ويتفسخ وتفوح منه رائحة تزكم الأنوف.

هنالك ابتعد الأقربون وتركوه ملقى في مزبلة.

لم يتفوه الرجل الصالح بكلمة تفصح عن غضبه أو يأسه، بل كان يحمد الله على صحة لسانه ليذكره في كل وقت.

وعندما يمتلئ قلبه بالموعظة سوف أستمر في الترميز فأخبره أن الغلاف ليس هو الكتاب،

وأن الكلمات المحفوظة في حضن الأوراق لا يضيرها أن تكون بلا باب مغلق. ..

-ماهذا الهذيان؟

أتحدث محمدي بطريقة الوحي والرمز، وتشرح له العلاقة بين الغلاف والصفحات ؟

-أشيري على، فإنني مشوش الفكر، ينطلق عقلي يمنة ويسرة وتسقط منه قراءاتي أيام الصفاء.

-هل أخبرت أحدًا بما تعرف عن مرض محمدي؟

-لم أجرؤ .

-إذن فلتغير كل ما نقلته عنه.

-أغيره ؟

-نعم، لماذا تصدمه بالمرض المعدي والبؤس الذي يقطع نياط القلب،

إنك حتى لو أخفيته بالرموز لن يتحمل وربما أصابك بأذى.

عادت ولاء تطفو على سطح عقله، وأحسّ أن طريقه مفروش بالألغام.

نظر إلى زوجته يستنجد بها قالت:

-كما ستبشر مدير شركة البنجر بالوزارة،

بشر محمدي بمحل كبير مرصع بالسيراميك، فيه جميع أنواع السمك، وهو يجلس على آلة إحصاء النقود.

ترك البيت على الفور وأشار لتكتك متجه إلى الطريق الدولية، هبط قبل مبنى شركة البنجر ليتذكر سيره الطويل على شاطئ البحيرة، هنا كان يتوحد مع الجمال الآسر الذى تصنعه المياه، والنباتات الطافية والطيور والأشرعة البيضاء، وفى نهاية الرحلة كان يظفر بخطبة جمعة مختلفة تغذى أرواح المصلين، وربما أيضًا بقصيدة أو بقصة قصيرة.

هاهى البحيرة الساحرة تحكى قصة الحياة، املأ رئتيك بالهواء البرى المحمل بالأسرار، ومتع بصرك المرهق بأفانين شمس العصر فى قلب الماء.

لم ينجح فى القاء الحمل عن كاهله، وتغافل عن الأصوات الشجية وعاد يفكر فى سالم رشاد وولاء وأحمد السكرى ومحمدى ومدير شركة البنجر.

لابد من الجلوس على حافة الطريق وإعداد ما سوف يبشر به الرجل، كانت السيارات المتجهة إلى دمياط وبلطيم والإسكندرية تمرق بجواره وتملأ أذنيه بهديرها الصاخب.

استغرق الأمر منه ساعة ليضم البشارة إلى بعضها، ويصنع منها شيئا يحرك القلب، ويدفع ذلك الموظف الكبير لإخراج مبلغ محترم، يحتاجه بشده هذه الأيام لدفع مصروفات الدروس الخاصة.

رحب به كإمام المسجد الكبير فى شرشيره، ربما صلى خلفه الجمعة مرة أو مرتين.

أدار عينيه الماكرتين فى وجهه، وتجاهل ما سمعه عن الطوالع من موظفي القرية، وكاد يذهب اليه لولا خشيته من الأفواه التى لا تكف عن النميمة.

أوصى لـه بفنجـان مـن القهـوة، رشـف منـه رشـفة واحـدة سـاعدته عـلى البـدء، فقـال كمـن يلقـى خطبـة حفظهـا:

-حدثنـي قلبـي كثـيرا بقدومكـم، وأكاد أفهـم أن عـدم المجـئ ليـس مـرده الشـك، لكنـه الخـوف مـن هـؤلاء الجهـلاء

ابتسم ونظر فى السجادة الثمينة، ثم قال:

-هذا حال القرى كلها.

-مـن دواعـي فخـرى أن يـرد اسـمكم المبـارك فى أوراقـي، وقـد أتيـت لأبشركـم

استراح بعض الشئ لنغمته المتفائلة، فقد خشي أن يورطه

بذكر شئ عن ولاء.

أتـى عـلى فنجانـه ومسـح شـفتيه بظهـر يـده قائـلا بوقـار مبالـغ فيـه:

-أرى السـعد مقبـلا عـلى سـاحة سـيدي، فمثلـك لا يكـون مرؤوسًـا ولا تابعًـا ولا منفـذًا لأوامـر غـيره، بـل زينـة المجالـس وأمـير الوقـت، مـا يخـرج مـن فيـك هـو القانـون يكتـب وينفـذ ويصلـح ويرتـب، ومـا تشـير بـه هـو صـلاح الأمـور واعتدالها.

سـيدي كانـت أيامـك فى شركـة السكرعسـلا ولبنـا عـلى العـمال والمسـتخدمين والتجـار،ولا ينسـى لـك مـا تبرعـت بـه

لإعـادة لياقـة الطريـق وتحمـل مسـئولية إفسـاده رغـم كثـرة العابريـن بالسـيارات والدراجـات البخاريـة.

هاهـى صفحـة الشركـة توشـك أن تطـو، لتبـدأ صفحـة الـوزارة، وهـو قـدر مقـدور يسـير فى ركاب النابهـين،

فلتكـن تهنئتـي أول التهـاني وأصدقهـا وآخـر دعوانـا أن الحمـد لله رب العالمـين

***

شرد على البنا، وشغله توقيت ظهور الرخاء.

أدركتـه فطنتـه المعروفـة فابتسـم، لديـك فتاتـان في سـن الـزواج، هـذا يعنـى أن الوقـت أزف، ربـما عـام أو عامـان، ربـما أقـل.

انتابـه قلـق آخـر يتعلـق بشرشـيرة كلها،كيـف تتحـول إلى مدينـة غنيـة، يـأكل أهلهـا مـن الطيبـات، ويمـوت فيهـا الفقـر المعمـر.

شرشـيرة التـي يعايـره تجـار الفـول في دسـوق بعمليـة إعـادة القضيـب إلى مكانـه،

والتـي يـزرع الأفيـون في حقـول القبالـوه علنـا ويبـاع عـلى المقاهـي وفى الشـوارع ويـوزع مـع المشروبـات في الأفـراح،

كيف تتقدم وتتطهر ؟

سمع صوت محمدي يرتفع فجأة عندما رأى سيارة أحد الكبار تسير الهوينى، كان يمط الحروف ويحاول صناعة أغنية كعادته:

-الجبن سيد الأخلاق يا باشا.

قطب الرجل جبينه وزم شفتيه متحملا تلك اللحظات، وابتسم محمدي ابتسامة واسعة.

عاد البنا يجلس واضعا ساقا على ساق،ومديرا زر المروحة التي انطلقت تلعب مع الهواء في دائرة واسعة

نظر إليها وهبت عليه نسائم من جراء اللعبة، جعلت أفكارًا هادئة

تطل من رأسه.

إن كبار الصحابة كانوا قبيل إسلامهم عتاة جبارين، فأدركتهم الرحمة فصارت أسماؤهم تتلى على المنابر.

مدينة مكة نفسها كانت مقر الأصنام والكفار،

وفيها حيكت كل المؤامرات ضد النبي صلى الله عليه وسلم، وفى شوارعها اعتدى عليه وأوذي مع أصحابه.

إنها الآن منية النفوس وراحة القلوب والأرواح،

يحلم الجميع بتقبيل ترابها والسير مكان خطوات الكرام.

يبدو كل ما قاله الشحات معقولا، وقابلا للتحقق.

ترك النسمة التي أنعشته وخرج إلى الباب،

كان محمدي صامتًا وقد وضع يده على خده بينما يده الأخرى تذب بالمنشة الخوص أي ذبابة تحوم على كنزه،

ثم تتركها لترش من دلو صغير زخات من الماء تعيد الحياة إلى السمك الذي أغلق عينيه،

فيفتحها ويحرك ذيوله وزعانفه، فتجاوبه القراميط في نصف البرميل بالدوران في الماء والاصطدام بالجدار بصوت كإطلاق الرصاص.

جلس بجواره، ناظرًا إلى مدخل القرية القريب،لا يريد أن يلتقي بعيني محمدي الفاحصتين لقاع النفس كالأشعة التشخيصية، بينما يجلس موسى كالطلسم البعيد.

لو يرى الشاب الدمياطى الآن مقبلاً ؟

يتخيله طويل القامة واسع العينين، أبيض، مشرق الجبهة.

سوف يتعرف عليه بلا أي وساطة،

إنه خُلِق ليعيش معه ويتزوج ابنته وينقل له خبرته فى صناعة المشبك، كما أن ابنه سينقل لنا صناعة الأثاث.

هل يحتضنه ويقبله ؟

أم تتغلب الحكمة فيصافحه بترفع ويتدلل بأنه حاليًا لا يحتاج عاملاً ؟

تطرد سعدك يا بنا وقد سعى إليك مجتازا ثلاث محافظات،لم يكتب له أن يتوقف في إحداها؟

انطلق محمدي يغنى بصوته العريض:

- يا شرشيره يا مظلومة اسمك ضاع في الحكومة.

***

استيقظ أحمد القبلاوى في الثلث الأخير من الليل ليروى حقل الطماطم قبل طلوع الفجر،هو ينام غالبا بعد صلاة العشاء.

لديه بعد انتهاء الرى رحلة أزمع ان يقوم بها بعد الصلاة إلى قناة المياه العذبة المتجهه إلى البحيرة،

ثمة دجاجات الماء السوداء ذوات المناقير التى تشبه النار تغطى الطريق الترابي على جانبيها.

يعود دائمًا بصيد وفير مربوط بالحبال.

لكن البومة الخضراء المطوقة بالأسود الفاحم حول رقبتها، غريمته ومخيبة تسديده زارته بلا موعد !

رآها تأتى إلى حقله وتقف على غصن الكافوره القريب من الأرض، قالت له:

- سمعتك يوم المئذنة تقول أنّ الدنيا لا تجيد توزيع الأدوار

بص فى وجهها مكفهرًا، ولم يحر جوابًا.

عادت تقول:

- لا تواجهني بالغضب، فإنه يكسر حدة الذهن ويريق الذكاء ويعطل حواس التدبير، أعدك ألا تتحرك بطنك وتهبط بك إلى الحقول .

اعتصم بالصبر، ولم يتأثر بتعريضها، غير دفة الحديث وقال :

- أتدرين ماذا جنيت على شرشيرة باختيارك للشحات ؟

إنه يدور كالثعلب الذي يختطف الدجاج.

- لم أكن أتصور أن تبلغ به القحة إلى هذا الحد الذي يجعله يضيف ويحذف لتحقيق مآربه، الأمر كله كان هدية لرد الجميل ومن أجل التسلية وانتظر مفاجأة تسعد قلبك.

-إنت ولا شك عدو مبين جاء يدمر هذه القرية الفقيرة

أمسك البندقية، لكنها ضحكت وقالت:

-ألم تجربها من قبل ؟

طارت نحو الجنوب، وتركته حائرًا، يعبث بأنبوب صديقته التى كانت تتعجب. انتظر أن تلعب بطنه لكن شيئًا لم يحدث، سار في طريق مختصر إلى القناة وعقله لا يكف عن التفكير، كانت المياه لا تزال نائمة قبل أن تفزعها مجاديف القوارب،

وصياح الرجال وضربات الصنار على الشاطئ وأحاديث تتصل حتى الغروب. وقف متحفزا وضبط البندقية التركية، ثم صوب نحو سرب من دجاج الماء يتبختر مغردًا بصوته الرفيع الحاد.

كان يربط أرجل الصيد بلا تفكير،

لأن ذهنه انشغل بالبومة لدرجة جعلته ينظر نحو الأفق من ناحية البحر، لعله يلمحها آتية مرة ثانية،

وبدأ يعد كلمات جارحة، لكنه لم يرَ إلا غيومًا تتسابق.

لست في شراهة الشحات وغبائه، لو كنت مكانه لرجحت اخفاء الكتاب.

لم يفكر يومًا إذا ما كان طالعه قد ورد أم لا ؟ لذا لم يكن من بين رواد بيته فى الليل.

عاد بطيوره وباع واحتفظ لنفسه بزوجين، وبعد أن تغدي نام ساعتين لم يرَ فيهما شيئًا، حاول أن يتفلسف كصياد طيور فقال لنفسه:

- البومة طائر ليلى.

لكنه ابتسم وسخر مما قاله:

-ألم تظهر فوق المئذنة المهدمة ظهرًا وتتحدى تصويبك المتقن؟

***

فى استراحة نصف اليوم الدراسي، استعر الحوار بين نفيسة زوجة الشحات وبين زميلاتها في الفسحة.

فاجأتها زميلة بسؤال حاد:

-هل يجوز الحصول على مال،لقاء كلمات غير موثوق بها؟

استطاعت في لحظة أن تستحضر قولا لأحد المشايخ سمعته في التليفزيون، فقالت مباشرة:

- نظير حبسه في وقت ومكان معينين لمصلحة شخص آخر

لم تقتنع السائلة، وعادت تقول:

-حتى الآن مر شهران دون أن تتحقق نبوءة واحدة

-لم تهتم البومة بالزمن.

-أنسيتى حكاية المرشح الذي سيقتل فيتجدد الصراع؟

ثمة أيام معدودة تفصلنا عن الانتخابات

صمتت قليلاً ثم استعادت توازنها وقالت:

-موعدنا إذن يومها

-قالت زميلة أخرى:

-وإذا لم يقع شئ مما توقعه ؟

-يستحق ساعتها أي عقاب ترونه

-اطلبي منه أن يكف عن قصصه الملفقة، حتى يثبت العكس.

أعجبها رأى الزميلة، ليتوقف تمامًا حتى يوم الملحمة،

وعندما تقع الأحداث كما رواها، يمكن أن يضع إصبعه في أي عين تحدق فيه، ولن يكتفي بالخمسين اسما الذين احتواهم الكتاب،

سيكون من حقه أن يضيف المزيد، في قرية كبيرة يعيش فيها ثلاثون ألفا.

طلبت منها صديقتها مدرسة اللغة الانجليزية أن تزيدهم إيضاحًا بما سيفعله جابر بعد أن يستحر القتل ويسود الخوف.

اعتدلت وشعرت بالثقة والقدرة على التلفيق، فبدأت تحدثهم عن حزب سياسي اسمه حزب الشراشره سيتشكل على يده،

وسيكون هدفه الأول تمليك الشباب أراضى البحيرة الواسعة المليئة بالغاب والبردي والذي

يرعى فيه الجاموس البرى والغزلان والفهود.

التجربة سوف تلقى تأييدا من شباب مصر كلها،

وسوف يتكرر الحزب فى قرى ومدن وعزب صغيرة،

لكن حزب الشراشره سيظل رائدا وستكتب عنه دراسات وبحوث.

أمّا جابر فانه سيكون نجما للتلفزة والصحف،

وسيصبح قدوة الشباب والكبار والبنات والسيدات، فيكفى أن يعرفوا كلفه بطعام أو شراب أو حتى صابون للغسيل،

حتى يصبح مطلبًا جماهيريًّا ويلقى رواجًا لا حدود له.

***

ولاء ستكون الليلة كلها من نصيب سالم رشاد الذى صمم الحزب على فوزه هذه المرة.

فشل كتلميذ بائس فى الدورة السابقة أمام شاب فقير، الآن الوضع اختلف، فالحزب رشحه وسمع من قادته أنه النائب القادم.

سوف يهبط شرشيرة غدا ليبشرها بالموافقة

على إقامة مطب صناعى مرتفع، يجبر السيارات على التهدئة، فتنتهى الحوادث ولا يجد جابر مبررا لاحتجاز الناس!

رغم أنه يجلس بجوارها يتأملها ويتحسسها فقط، فإنها تنتظر قدومه من القاهرة وتعجبها شجاعته حيث يرسل لها سائقه فى أول الجسر.

كـم تحتقـر المقـدم حلمـى الـذى تشـم رغبتـه العارمـة، لكنـه يدفنهـا فى داخلـه وهـى حيـة تؤرقـه وترهقـه.

تستلقي بجواره، فيعجب من إتقان كل قطعة فيها،

يمـرر يديـه عـلى شـعرها الأحمـر المختلـط بالصفـرة، نعومتـه تزيدهـا بعـض الجعـودة الخفيفـة سـحرا، يجعـل الأصابـع تتلـذذ بالمقاومة.

هـى تعـرف أنـه لا ينزلـق إلى الالتحـام، وتعـرف أيضًـا أنهـا هنـا لتنفيـذ رغباتـه بـلا أسـئلة !

حين وصلت ودخلت الفيللا بثقة سيدة المكان،

نسـى تمامًـا مـا كان يفكـر فيـه مـن اقـتراب يـوم الاقـتراع، أسـبوعان ويسـقط قتيـلاً برصاصـة فى الظهـر آتيـة مـن أسـلحة الحدايـدة.

تهامسا كما يفعلان فى كل مرة، حكى لها ما يفعله فى

القاهـرة ومـا يتناولـه فى غدائـه وعشـائه، ضحـك وهـو يصـف لهـا البرلمـان ويقلـد أعضـاءه الذيـن تراهـم فى التلفـاز.

تستمع إلى صمته.

سـمع عنهـا منـذ سـنوات، وذات مـرة كان مسـافرا يقـود سـيارته بنفسـه.

كنا بعد العشاء بقليل. أشارت له امرأة جميلة يتحرك جسدها كله تحت عباءة سوداء، توقف كالمخدر وركبت بجواره.

قال لها:

- إلى أين ؟

- ليس بعيدا، سأنزل فى دسوق

لاذ بالصمت، لكنها ابتسمت وسألته:

- ألا تعرفني.

- عفوًا لم يصادفني الشرف.

- أنت تعرفنى اسمًا فقط، أنا ولاء.

كاد ينحرف إلى الترعة، تماسك وتجاهل ضربات قلبه وقال مجاملاً:

- طبعًا، وهل يخفى القمر؟

اندفعت تتحدث عن شرشيرة والمقدم حلمى والشحات.

اقتربت منه وانتقلت سخونتها اليه، أراد أن يتزحزح فلم تتركه .

لا يعرف كيف وصل، نزلت فى مدخل المدينة وأشارت له ضاحكة.

فيما بعد صار السائق رسولا بينهما، وها هي بين ذراعيه كحمامة وادعة.

أفاق وعاد إلى الهمس وتحريك اليد، لكن أصواتًا فى الحديقة اخترقت السكون، قال بصوت خفيض:

- ضيوف.

لن تكتمل الليلة التى انتظرتها.

ارتدت ملابسها فى لمحة، وتحركت خارجة.

من الباب الخلفي حيث تنتظرها السيارة، لكنها توقفت فجأة وقالت:

- إذا أنجاك الله من سخافات الشحات،

عدني أن تلحق ابني بكلية الشرطة

رفع حاجبيه وقال بلهفة:

- كم عمره ؟

- خمس سنوات.

***

تـردد جـاد الله كثـيرًا عـلى المغـازى فى الصيدليـة، كان يطلـب مسـكنات ومضـادات حيويـة كغـيره مـن الأهـالي، فى وسـط ضجـة العمـل لم يكـن يتوقـف عنـده أو يفكـر فيـه.

الليلـة جـاء وجلـس عـلى المقعـد الخارجـي، انتظـر أن يطلـب شـيئا لكنـه لاذ بالصمـت. هـل تكـون علاقتـه بـولاء قـد وصلـت أخـيرًا اليـه؟

لـو حـدث هـذا لـن يتعجـب أو حتـى يخـاف، يكفـى مـا ضـاع مـن الوقـت فى انتظـار البـلاء!

ربـما يتمهـل حتـى تخلـو الصيدليـة، ثـم يهجـم عليـه بسـكين مخفي فى ملابسـه، سـاعتها لـن يصرخ ولـن يقاوم، وسيبتسـم له.

خامـره شـعور باللامبـالاة، وأعتقـد أن كل زبـون يدخـل ويخـرج بالـدواء وبسـؤال ضخـم:

- كيف يجلس الفأر مع القط؟

كأنني الوحيد الذى يتعامل مع المرأة !

الجميـع نسـوا ذنوبهـم، تذكـروا فقـط أن المغـازى وجـاد الله فى مـكان واحـد.

راقبه من الداخل دون أن يجعله يفطن إلى اهتمامه،

رائحته مألوفة، وجهه هادئ وشاربه الخفيف يضفى

عليه غموضا، تتحرك عيناه الواسعتان لتلتهم كل

تفاصيل المكان.

يبتسم لنفسه ابتسامة صغيرة مليئة بالتفكير.

فجأة تحتل جبهته غيمة فيخفض رأسه ويغيب قليلا، ثم يرفعها مبتسما فيرتفع الشارب الخفيف ويزيد غموضه.

وجد نفسه الآن مستريحًا لوجوده مهما كان المبرر، يتمنى أن يطيل الجلوس حتى ينتهى سيل الزبائن ويجلسان معًا،

إنه بحاجة ليتحدث معه ويحدق فى عينيه ويتأمل شفتيه المزمومتين، لم تراوده مشاعر الزهو أو الانتصار، بل كان يختلس اليه النظر ويشعر أنه منجذب إليه.

زالت أفكاره القديمة التى كانت تهاجمه عند رؤية جاد الله، أحسّ أنها كانت بدائية للغاية !

شعر بقدميه تؤلمانه وبدأت أذناه تصفران بإصرار،

متى تنتهي هذه المسرحية ؟

الوقت يتثاقل ليتفرج عليه فى محنته، وكلما اعتقد أن الأرجل خفت وأوشك اللقاء الخطير، يأتي أحدهم فيتحدث ويشكو ولا يغادر حتى يصدمه بنظرات حادة مليئة بالضجر.

نفس الشعور المرعب ينتابه لدى دخول جابر،

فى كل مـرة يحتفـظ بمسـافة معقولـة بينهـما، وينتظـر بـين لحظـة وأخـرى أن يهجـم عليـه، لكنـه دائـمًا يتحـدث بدماثـة.

لماذا يتردد ؟

متى تنتهي تلك المسخرة ؟

لازال جـاد الله ينظـر إلى السـقف ويبتسـم ويمسـح جبهتـه مـن الحـرارة.

لم يعد سواهما أخيرا، ماذا يجعلك تتأكد من مهاجمته لك ؟

افترض أنه بدأ بالعتاب حتى لو كان قاسيا !

سـيبادرك وقـد اختفـت ابتسـامته وزايلـه الهـدوء وارتفـع شـاربه الخفيـف مهـددًا، وامتـلأت عينـاه الواسـعتين بالحقـد:

– مـا جـزاء الغريـب الـذى آوتـه شرشـيره ومـلأت جيوبـه، حـين يغـوى امـرأة متزوجـة مـن رجـل محـترم ؟

لابـد أن أبتلـع الصدمـة وأقـاوم الانهيـار وأحـاول الدفـاع عـن وجـودي:

– هـل تصـدق أن رجـلا يجـرؤ عـلى الاقـتراب مـن امـرأة لا تريـده ؟

لا، هكذا تعترف وتمنحه مبررا لقتلك.

اصرخ فى وجهه:

إذا كنت غيورًا إلى حد قتلى، فاقتل أيضًا مدير شركة السكر ورئيس الوحدة المحلية وعضو مجلس الشعب ورئيس الوحدة المحلية، وعددًا لا حصر له من أكبر عائلتين، أضف إلى كل هؤلاء صعاليك شرشيرة.

إنك بذلك اللهب الذى تنفثه فى وجهه، سوف تجعله ينفجر ويمزقك أشلاء لا يمكن نقلها إلى دمنهور

لتنكر بكل قوتك:

- إذا كنت تقصدني فإنى لم أتورط فى إثم منذ هبطت قريتكم،

وها أنت تراني غارقًا إلى أذني فى البيع إلى وقت متأخر،

كما لا يفوتك أن زوجتي تقيم معي، نعم هناك فوق الصيدلية، ولكي تصدقني سأهاتفها لترسل لنا كوبين من الشاى.

خرج من وراء البنك الزجاجي وجلس فى مقعد خشبي بجواره:

- آسف على التأخير، اسمح لى أن أوصى بشئ نشربه

– كلا لست فى حاجة إلى شراب، إننى جئتك أستفسر عن أمر شغلني طويلاً

– خيرًا

– أريد أن أعرف ماهى أقوى وأسرع المواد لحفظ الجثث ؟

– الجثث ؟

تذكر ما سمعه عن نيته منع الدفن وإعادة تدوير الموتى.

لم يظهر أدنى دهشة، كما لم يستفسر أو يسأل، لاذ بالصمت.

–أرجو منك أن تزودني بكتب عن حفظ الجثث.

– لكنها باللغة الإنجليزية.

– أتقنها أكثر من العربية وأقرأ بها معظم الآداب الأوروبية.

– لديَّ بحث قام به فريق أمريكي أسفر عن ابتكار ثلاجات تحفظ الجثث بحالة جيدة لمدة عشرين عامًا دخل المعمل، ثم خرج وبيده كتيب صغير، تناوله جاد الله وأحنى رأسه شاكرًا، ثم انصرف بخطوات واسعة.

جلس يلتقط أنفاسه، وقفزت صورة ولاء وهى بجانبه في شقة دسوق تسأله حين كان بين اليقظة والنوم، عن معنى تبادل الزوجات !

***

تصفح الكتيب ثم نحاه وشعر أن بينه وبين هذا العالم الذى يرتب لولوجه، خطوة اكتساب الشجاعة وثبات القلب.

وهى تخوله

ليصبح أحد مطهري القرى والمدن.

البداية هى نبش قبور ضحايا حرب كريمة، فإذا صمد أمام حقد القتلى الهائل على الأحياء، سيكون رائدًا فى منطقته، وسيطيعه كل من يقع اختياره عليه.

لا وقت يضيعه فى أفكار نظرية سيأتى موعدها فيما بعد.

كى يبرهن على قدرته، تحدى نفسه واختار أن يبدأ بقبر مالك السكرى.

جلس فى مكتبه يرسم خطوطا على ورقة، ويهز رأسه، ويصدر أصواتًا مبهمة، لم ينس الاحتياط لأتفه الأشياء.

المقابر الملعونة تقع خارج القرية فى أول طريق القناة، ومن الصعب رؤيتها من بعيد لاختفائها خلف غابات من البوص والطرفاء.

يعرف أن قبر مالك يوجد داخل مدفن مسور مغلق بقفل كبير، سيحتاج إلى بعض من ماء النار ليفجره.

كما سيحتاج إلى بطارية قوية ليسير على هداها.

عليه أن ينفذ على الفور، فالقمر فى المحاق، والطريق شبه خالية.

فى منتصف الليل انسل من المندرة بحجة المغص، كان قد أخفى أغراضه فى ساقية مهجورة.

غطى رأسه ورقبته بملفحة سوداء، وترك البطارية مطفأة لتبقى معه أطول وقت ممكن.

هو الآن جزءًا من النباتات والماء والطيور الهاجعة، لم ينزعج قلبه لهذا الصمت الثقيل، والكمون الأثقل.

إنه نظام العالم فى هذا الوقت، ولا ينبغى أن يثير قلقًا أو خوفًا.

لم يسر طويلاً ووجد نفسه وجهًا لوجه مع قرية الراحلين،

فتح البطارية ووضع القطارة فى فم القفل، سمح لعدة نقاط من حمض الكبريتيك المركز أن تسقط فى جوفه،

وفى لحظة تهاوى قطعا تحت قدميه. سمع دبيب حوافر مسرعة على الأرض، وجه البطارية ناحيتها فرأى حمارة تهرول بين الشواهد، ساحبة خلفها أمعاءها، لم يخف، بل ابتسم وقال :

- كريمة ؟ ما الذى يوقفك هنا ؟

هز رأسه بلا مبالاة وتناول الفأس

فأزال الأسمنت الذى يسد القبر، ودخل بكل جسارة وأضاء القبو. داهمته رائحة العدم الكريهة، تحداها واستنشق نفسًا طويلاً.

كان مالك عظاما مبعثرة وحيدة، لأنه لا يجوز أن يدفن معه أحد.

أنا فى بيتك يا عمدة، حطمت القفل وكسرت المدخل. كيف تنام وقتيلتك كريمة تسحب أمعاءها، ولا يطاوعها قلبها رغم ذلك أن تغادرك ؟

إنها ليلتى وسأقضيها بمهارة ومتعة. نام بجوار العظام وظل ينقل عينيه فى الأركان الخرساء. أعرف أنك تخدعنى، وأنك الآن فى مكان ما من شرشيرة تقود الفوضى.

ولدت فى داخله أفكار كثيرة، وكان ذهنه صاف ومتقد، هكذا انتصرت يا ابن شعبان.

لديك الآن جنينًا يتشكل لكتاب التطهير.

وقعت عيناه فجأة على الجمجمة، ركز الضوء عليها، كان الفكان يلمعان بالتلبيسات الذهبية عيار ٢٤.

شكرا للغنيمة، لينتزعها،

غير رأيه بلا مقدمات، وأمسك بالجمجمة الباردة يقلبها أمام البطارية، لمح ثقبين صغيرين من الخلف، الفكان لا يكفان عن إرسال البريق.

ألقاها فى حقيبة الأغراض، وخرج تاركا القبر مفتوحًا، وكذلك باب المدفن الخارجي.

بعد عدة خطوات توقف، كدت أنسى إعادة كل شئ إلى أصله، وأتسبب فى حريق يأتي على الأخضر واليابس.

هبط إلى قناة الري على بعد مائة متر، تجلت الآن قوته، كشقيقه جابر، وحمل طينا كثيرا بين ذراعيه فاق تصوره، ليسد به الفوهة، ابتسم لأنه لم يجرب تلك القوة أو يعتقد بوجودها من قبل،

تمنى لو استطاع أن يروض جابر ويجعله ضمن فريقه، بدلاً من ألعابه البهلوانية.

أخرج القفل البديل من جيبه، ووضعه على الباب الخارجي، ثم اغتسل فى الماء البارد وعاد بحقيبته.

***

اقـترب موسـم وصيـد الغـر، وأراد القبـلاوى أن يتفقـد القـارب المخفـي وسـط البـوص.

صلى الفجر واتجه إلى البحيرة،

خـاض المـاء الضحـل وسـمع صـوت المـاء الجميـل حـول خطواتـه، بينـما تقفـز أسـماك صغـيرة وضفـادع وطيـور فزعـت مـن نومهـا وطـارت بـلا هـدف.

جلـس عـلى مقدمتـه يفحـص كل قطعـة بعينـي الخبـير، لازال الصمـت الثقيـل يجثـم فـوق المـاء، والفلائـك نائمـة حتـى يصـل أصحابهـا مـن شرشـيرة والبـلاد المتناثـرة حولهـا.

القارب بحالة جيدة ولن يحتاج لسحبه إلى الشاطئ،

سوف يكتفي بغسله وتجفيفه.

اهتـز كتفـاه بـلا إرادة وشـعر بشـئ ثقيـل يهبـط تحـت قدميه، كانـت هـي نفـس البومـة الخـضراء، ذات الطـوق الفاحم.

ابتسمت لتهدئ من روعه وقالت بنبرة رقيقة:

- لتكن هادئًا .

لم يجد كلمة، وقال لنفسه: ماذا فى جعبتها؟

لن أشعرها أنى خائف،

عـاد يتفـرس في القـارب وأمسـك قطعـة قـماش قديمـة مسـح بهـا بعـض الـتراب، قاطعتـه قائلـة:

-استمع إليَّ بفطنتك التى اكتسبتها من العزلة،

فهـى التـى جذبتنـى إليـك قاطعـة جبـالاً وَوِهـادًا وأنهـارًا، لم أعـط الشـحات سـوى خمسـين طالعًـا، ثـم تحركـت نوازعـه الشريـرة، فتوقفـت.

سـقطت قطعـة القـماش مـن يـده وهـب واقفًـا، كانـت بعـض السـيارات ذات الصنـدوق الخلفـى قـد وصلـت محملـة بالرجـال والشـباك والمجاديـف.

بعد دقائق ستتحرك الفلائك وتقترب منه.

جـدف بـكل عزمـه داخـلاً فى حائـط البـوص حتـى انفـرج وأخفـى القـارب تمامًـا، سـألها ضاحـكًا:

- والباقى ؟

- عندمـا يأتـى الغـر الأسـود مـن وراء البحـر المالح، سـوف تبـدأ جلسـتنا الأولى، وسـأملى عليك الأجـزاء الكـبرى المفقودة .

- لا، لست أصلح لجلساتك،

أنا صياد طيور، أعرف تواريخ أيامى بهجرتهم،

ولا يشغلني شئ آخر ثم إننى رجل فقير نازح وراء الرزق، اهبطي على رجل من السكاكره أو الحدايده، أو اذهبي إلى جابر.

بذلت جهدًا لا بأس به لإقناعه، وأغرته بأن بقية الأوراق مليئة بالعجائب،

أغلق أذنيه تمامًا ونظر إليها بضجر مشيرًا بعلامة الانصراف.

عندما ولت مكتئبة، نزل فى قلب القارب وفرد جسمه، وحدّث نفسه:

هاهى الحياة، إنها حلوة برغم كل شئ، وعندما قلت إنها لا تجيد توزيع الأدوار، لم أكن أحسد الشحات، أو أطمح فى تلقى الطوالع، كنت فقط أقصد أنه لا يصلح وسوف يثير اللغط والكراهية.

كان يمكنك لو صبرت معرفة إجابة الكثير من الأسئلة التى حارت فيها العقول:

بأى أرض تقيم سكينه، ومن هي ولاء ؟

وكيف سيتصرف الشحات بعد ثبوت نقص أوراقه ؟

وما نهاية سعيد الزقلوظ ؟

كان فى مقدورك على الأقل أن تسألها عن مستقبلك

ومستقبل زوجتك وأولادك !

لكن شعوره بالندم ما لبث أن تلاشى، عندما جس بطنه فوجدها تعمل فى دقة الساعة السويسرية،

وحل محله شعور بالرضا عن نفسه، فنام على ظهره وراقب زرزورًا اندفع كالسهم وخرج بسمكة صغيرة لامعة.

***

فى نهاية المطاف جلست شهد أمام الشحات ليحكى لها عما قرأه عنها، انتظرته مع نفيسه وبكت كما تفعل دائمًا،

رقت لها وقررت أن تبتلع كلمتها التى التزمت بها لزميلاتها ولو لمرة واحدة، لن أكسر قلب المسكينة.

خفضت شهد رأسها وأرهفت أذنيها وهو يقول:

« أنت امرأة معشوقة، لكنك لن تتزوجي ثانية، انقطع خيط البعولة.

من اختاره قلبك، ليس من طبعه البوح، وقد يريد المدح فيذم، اسمه مشتق من جبر الكسور والخواطر.

ناري الطبع لا يستقيم مع بيت الحمل.

يحبك فى الصباح ويكرهك فى المساء.وهذا كله من شؤم الذنب الذى اقترفتماه

عندما هبطتما من التوتة،

وتمرغتما فى العصيان فى حديقة الليمون، ثم خدعت زوجك بعذريتك الزائفة.

سيظل يسمعك وينكرك، وتدخلين فيطردك،

لا تسمعين منه إلا لغة الغضب، وهو مسكين يحمل مالا طاقة له به. يرى مالاً نرى ويبرق قلبه فى الظلام لشدة الوجد والجذب والمكابدة.

ستنفقين عمرك فى انتظاره وهو أمام عينيك كالظل مرئي غير ملموس،

ولن تنالي منه سوى الحزن والقلق، تبكين كلما سقط فى مأزق، وما أكثر مآزقه.

ولأنه منذور للناس، فلن يكون له نصيب فى الراحة، يعيش ويموت متعبًا،

وأسعد أيامه أواخرها. يحمل على الأعناق ويحفظ فى الأحداق.

أمَّـا أنـت فمـن حظـك الوحـدة، تتحدثـين إلى الجـدران وتبثـين ألامـك، وتطـول لياليـك وأيامـك، لا أنيـس ولا ولـد، وسـبحان مـن ليـس لـه ولـد.

قبيـل موتـك سـوف تنتهـي مواجعـك ويتجـلى ربـك عليك بالرحمـة، سـيكون خلاصـك فى العبـادة وخدمـة العباد.

سوف تصبح سجادتك وخلوتك هما سر سعادتك،

وسـبب إقبـال النـاس عـلى بيتـك، يتعلمـون ويتوبـون ويتبركـون. «

***

عندمـا يصيـب شرشـيره طائـف مـن خـير، يظهـر الباحثـون عـن المصلحـة والشـهرة، وهكـذا اجتمـع سـالم رشـاد المرشـح الحكومـي،

وسـعد رزق رئيـس الوحـدة المحليـة، وجـبر المخـبر ممثـلا للمقـدم حلمـى، ومهنـدس مـن مجلـس مدينـة دسـوق، وناظـر المدرسـة،

ومديـر مركـز الشـباب، ورئيـس جمعيـة تنميـة المجتمـع، وبعـض الموظفـين والمثقفـين والمتفرجـين، ليشـهدوا ميـلاد المطـب.

كان جابر على المقهى يشرب الشاى ويرقب الجلبة التى صنعها العمال منذ ساعتين، حيث وضعوا الزلط والرمل والأسمنت

وأغرقوهم بالماء، ثم بدأوا فى الخلط بالمجرفة الحديدية المربوطة بحبل غليظ، استهل أحدهم التقليب بها ثم جذب الباقون الحبل لتقليل المقاومة.

ابتسم عندما تذكر رتل السيارات الواقف، وأصحابها الأعيان المرتعشين، انتهى الرعب من المركبات المجنونة التى ترمح وتدوس المسنين والأطفال والطيور.

محمدى بائع السمك انفرجت ملامحه، وتيقن أن المطب سوف يجبر الغرباء على التمهل، ولابد أنهم سيكتشفون رجلا يبيع السمك الطازج، عندما تهب عليهم الرائحة الطيبة والمنظر البديع.

لا بأس أن يحملوا معهم افطارهم من عبده البنا،

ستتحرك القرية ويدور القرش فيها، بدلا من ذلك النوم الثقيل.

الآن انتهى الجزء الأول من العمل، وحمل الرجال الخرسانة إلى وسط الطريق.

ظهر هيكل المطب عاليًا، وجاء دور القار، ليصب فوق الخرسانة ويقويها.

عندما اكتمل دوت زغرودة طويلة يعرفها جابر حق المعرفة، بحث عن شهد ابنة خالته ليعنفها ويطردها، فدخلت سربا ضيقا ووقفت مرهفة أذنيها.

صفق الواقفون وانحنى سالم رشاد مبتسمًا، فاليوم الفاصل اقترب، وقد جاء بنفسه علهم يردون الجميل، وجدها فرصة ليتحدث عن حبه للأهالى وعشرته معهم وعن المشاعر الطيبة التى يحلمها لهم.

كان الشحات مندسًا بين المتفرجين، فقال لنفسه هازئًا:

-لن تجد وقتًا لهذا، فسوف تفقد حياتك يوم الانتخابات

كان عبده البنا مقطبا جبينه،

بينما موسى الصائم سارح فى امتداد الحقول.

محمدى يهب قابضا باحدى يديه على سمكة بورى تحرك ذيلها بقوة وتحاول الانزلاق،

بينما يقبض بالثانية على سمكة بلطى تكافح لتفلت كأنها ترى ماء الترعة القريب، وتحلم بالقفز فى قلبه المفعم بالحياة.

يقترب من أول سيارة ويدخل يده من النافذة:

بلطى وبورى شرشيره، جرب ولن تنسى

لم يستطع الرجل الذى كان منذ لحظة يقاوم الغيظ والضجر،

أن يمنع ابتسامته، وبدأ يسأل عن الأسعار، ورأى الجمهور محمدى يقفز نحو المنضدة ويخرج البورى ويزنه،

ثم يضعه فى قرطاس سميك من ورق شكائر الأسمنت.

أشار له شخص آخر، وتكرر طوافه السريع بين السيارات

والمنضدة، وأشرق وجهه بابتسامة عريضة استمرت طويلا، حتى بعد أن جف المطب وسمح للمحتجزين بالانطلاق.

***

لدى اقترابه يحمل حقيبة مليئة باليمام، سوف يقدمها للمقدم حلمى الذى طلبها بإلحاح.

لمح القبلاوى زحامًا، أدار بصره فالتقى بالشحات، فوجئ بقلبه يركض بعنف، و فاض صدره بالألم وكاد يتهاوى على الأرض.

وقف ينظر إلى المطب، ويستمع إلى صيحات الفرح من هؤلاء المنسيين، فتمهل قلبه شيئا ما وأصبح يتحرك أهدأ، بدلا من الركض العنيف.

وجده يمتلئ بحب شرشيره التى آوته ومنحته زوجة وحقلا وبندقية تركية وأولادًا وزبائن وأصدقاء.

هاهى تربح مطبًا يراها الغرباء من خلاله.

سيثبت لها حبه الآن ويؤخر تسليم اليمام.

وقعت عيناه على جابر يشرب الكوب الثالث من الشاى، فانحلت عقدة لسانه ووجه كلامه اليه بصوت عال:

-اسمع يا جابر، لقد انتهت مهمتك فى إيقاف السيارات، الآن لديك مهمة أخرى أكثر أهمية.

غطى الصمت المكان، وتركزت الأعين على القبلاوى، فعاد يصرخ بكل ما سمعه من البومه ويهز الحقيبة فوق كتفه.

الشحات بدا كالمخدر، ولم يستطع الحركة وحملق فى جابر الذى صمت وبقى فى مكانه.

ارتفعت الهمهمات،

شعر القبلاوى بالقلق، فقال لجابر:

-لماذا لا ترد عليَّ، ألستُ أكلمك ؟ أنا رفضت اليوم أوراقًا جديدة عرضتها على البومة.

لم يستطع الشحات السكوت فزعق:

القبلاوى أصابه الخرف من كثرة إلمامه بالأماكن المهجورة.

ألم تغادرك البومة بعد خمسين طالعًا، لأنها قرأت ما يحيك فى أعماقك من شر؟

ألم أقل لكم إن عقله أصابه العطب، أتسمعون ما يقول؟

انتظر الرجال أن يستجوبه جابر ليفسر لهم تلك الألغاز، وهو استعد لذلك، إلا أن جابر تململ ووجد نفسه يقف.

قفز طوار المقهى وامسك بيديه رسغ الشحات، فشعر بروحه تتسرب:

تريد أن تقتلنى أمام هؤلاء؟

قال موسى لنفسه:

أعرف وجهه عندما تتملكه قوة العفاريت

أفلت اليد المرتعشة لكن الشحات ظل مغروسا كجذع ميت،

وفى ثلاث خطوات واسعة اقتحم محل موسى،

فبقى جالسا مبتسما، لقد أخفى كل الآلات الخطرة منذ بداية المشهد، تركه يصطدم بالذبيحة المعلقة فتهتز وتتأرجح، اتّجه إلى الركن الذى يقبع فيه الحبل الغليظ، حمله ومضى.

ثبت الشحات الذى لم يتوقع، فى ساق الشجرة المواجهة للمقهى بإحكام وهدد المتفرجين:

-هذا ما سيحدث لكل من تأتى سيرة البومة على لسانه.

عاد إلى المقهى وجلس واضعا ساقا على آخر وطلب كوبا آخر من الحلبة.

ظل القبلاوى هادئا وأشار إلى جبر المخبر فاقترب منه، أعطاه اليمام فمضى يهرول فرحًا بإخراجه من الجب.

الشحات بدأ يبكى ثم ارتفع صوته وهو يقول:

-والله لو مزقتنى اربأ واسلت دمى قطرة قطرة ما كرهتك، فأنت نهار هذه القرية.

لم يتأثر بما سمعه وارتشف ببطء.

لن أقبل شفاعة، ولو جاء جاد الله سيجد وجها آخر لم يره من قبل،

لقد دعوت له من قلبي، ولو استجيب دعائي، فلن يحضر اليوم .

المقدم حلمى أول من احترق بالنار، منذ سكب الشحات

سمه فى أذنه.

سالم رشاد الذى انصرف منذ قليل، يدعى الثبات ويتهكم على قصة مقتله، لكنه يبكى فى سريره، وتراوده نفسه أن لا يهبط شرشيرة يوم الانتخابات !

طار الخبر إلى المدرسة وطن فى أذن زوجة الشحات، فتركت الفصل وتدحرجت بجسدها البدين نحو الجسر.

كان الأهالى يتدفقون من كل ثقب، ووجدت نفسها تقاوم موجة بشرية، صرخت فى وجوههم فانتبهوا وأفسحوا لها.

كان عامل الوحدة المحلية قد هاتف سعد رزق

فاتجه إلى مكتب جاد الله، وجده مستغرقاً فى قراءة البحث المتعلق بحفظ الجثث عشرين عاما، فنهره قائلاً:

- أخوك ربط الشيخ الشحات فى شجرة المقهى، والبلد كلها هناك

لم يجد له عزما، وتثاقل يقلب الصفحات، لكن رئيسه دفعه فى ظهره فوضع البحث فى الدرج وأغلقه بالمفتاح، وسار متباطئًا مصدوع الرأس.

حين وصلت زوجة الشحات رأته يبكى وشرشيرة تحملق فيه كأنه حيوان ينتظر الذبح، صاتت من قلبها:

-لو كان غنيًّا أو من عائلة كبيرة ما جرؤت على ذلك

لم يرد وأدار وجهه، فعادت تقول:

- تتفرجون على شيخكم ويقتلكم الجبن فلا تقولون كلمة

أرادت أن تفكه وتعود معه إلى البيت، لكنها تعرف جابر وغضبته، لن يرحمها كامرأة، وربما ربطها بجواره.

واتتها موجة شجاعة عالية جعلتها تقترب من جابر وتواجهه:

-لماذا لا تربط بالمرة ولاء، وسعيد الزقلوط، والمغازى ؟

كأنها رمته بحجر، تحسس جبهته التى شجتها،

راودته الرغبة فعلا فى ربط هؤلاء، لكنه لم يستطع التحرك من مكانه، واكتشف أنه تافه كالعادة.

***

دخلت شارع عبد الحافظ لتختصر المسافة، ومضت نحو النقطة تصيح،

وصل جاد الله فازداد نبض القوب واتسعت المآقي وعندما لمح الشحات مربوطاً يللبكى، لم يهتم بشقيقه الجالس بالمقهى، فكر قائلاً لنفسه:

قليل من الصبر يا قريتى العزيزة، وسوف أجعلك كيوم ولدتك أمك

بدأ على الفور يفك العقدة الأولى.

قطع جابر المسافة بينهما بخطوة واحدة، وأسقط جاد الله أرضًا ثم برك فوقه وبدأ يضربه بقبضته فى كل مكان تصل إليه، وهو يهدر:

-انتهى وقت الخنوع أيها الحقير، لن أتركك الا جثة أستخدمها فى صنع أدوات النظافة والسماد. عندما ازدادت الضربات ولم يجد مقاومة من شقيقه العفى، تركه وعاد إلى مقعده، فقام ينفض التراب ويعرج إلى مقر عمله.

وقف جبر أمام المقدم حلمى يسرد عليه بسرعة ما حدث، نهض من مكانه إلى الحديقة، والمخبر من خلفه يكمل.

وصلت الزوجة الثائرة واقتحمت المكان صارخة:

- ما فائدة النقطة إذا كان جابر يعيث فسادًا

نظر إلى جبر، واستعاد وعيه فأكمل له التقرير، أشار اليها لتجلس فرفضت وقالت باكية:

-زوجى مربوط فى الشجرة والقرية تتفرج عليه

أشار إلى اثنين من العساكر بسلاحهما فتبعاه وسار جبر خلفهم والمرأة تحاول أن تسبق الجميع.

حاول عدد قليل من الأطفال والغلمان والرجال الذين بلا عمل، أن يتبعوا قافلة الحكومة،

استطاع المخبر أن يطردهم وامتلأ فمه بالسباب والتهديد.

جلس الأعيان فى منادرهم يؤيدون ويرفضون، وابتسم رئيس القرية عندما بلغه أن جابر ألقى جاد الله أرضًا وداس فوقه !

شهد لازالت مختبئة بالسرب الجانبى،

لا يمكنها أن تتحرك قبل أن تطمئن على جابر، وتحبس أنفاسها حتى لا يشم رائحتها فيطردها أو يضربها.

كانت الغربان تحلق وتنعب مما يجعل المقدم حلمى يشعر بألم فى معدته علاوة على ظهره الذى أحناه رغمًا عنه.

زوجة الشحات تبكى وتسبقهم مغمغمة بكلام لا يبين منه سوى حروف قليلة. هبت نسمة قوية تنبئ باقتراب الخريف،

فأمسكت بذيل عباءتها حتى لا تطير، عندما اقتربوا من مشهد التعذيب

رفع الشحات صوته بالبكاء، وتبادل المقدم مع جابر عدة نظرات غير مفهومة، ثم أشار إلى أحد الجنود ففكه، ولم ينطق جابر بكلمة، بل واستسلم للمخبر

الذى أمره رئيسه باقتيادهما إلى النقطة.

***

اتجه المقدم إلى المنزل، ولم يعد إلى النقطة فى المساء. كنا بعد العصر والشمس بدأت تنزلق خلف البيوت.

ادخلهما جبر فى الحجز وأغلق الباب ومضى ليجلس فى الحديقة، غير قادر على فهم ما يحدث !

لا زال الشحات يبكى بينما التزم جابر الصمت وتكوم فى ركن.

انتابتــه رغبــة شــديدة فى إفــراغ مثانتــه، فاتجــه إلى الحــمام. ابتســم عندمــا وجــد لــه بابًــا، دفعــه إلى الداخــل وولــج ببــطء، ثــم أغلقــه بإحــكام.

وقــف يتبــول واتســعت ابتســامته، يبــدو أن الــكلام عــن حمامــات بــلا أبــواب فى الســجون ليــس دقيقًــا.

يجــب أن يضــع خطــة محكمــة لقتــل الكلبــة، لــن يســمح لنفســه بالفشــل، ولــن يمضــغ قطعــة أفيــون ليحتضــن جحشًــا.

ســيجلس داخــل المقهــى القديــم حتــى تمــر، فيقفــز كالنمــر ويضربهــا بالمطــواة، لا المطــواة ضعيفــة لــن تصلــح للإجهــاز عليهــا،

ســوف يســتعير ســاطورًا مــن موســى، يخفيــه فى ملابســه، وبضربــة واحــدة يفصــل رأســها.

بعد أن ينتهي لن يكون تافها،

ربما يقرر أن ينحر نفسه ليستريح من كل شئ.

رجع إلى مكانه، وأغمض عينيه.

حاول الشحات أن يتحدث معه فنهره:

-لا حديث بيني وبينك

غمغم ببضع كلمات، ثم تكوم ووضع رأسه بين يديه وتوقف تمامًا عن الحركة.

جاءت زوجة الشحات وتحدثت بغضب مع جبر من خلف البوابة، حاول تهدئتها دون جدوى،

لكنها عندما رأت زوجة جابر آتية تحمل طعامًا وبين أهدابها بقايا دموع، استدارت عائدة بسرعة، لماذا لم تفطن لمسألة الطعام ؟

فتح جبر الباب وأعطى الطعام لجابر قائلاً:

-زوجتك أحضرته

لم يذق الطعام منذ الصباح الباكر، والرائحة وصلت للمعدة، فبدأت تتقلص تقلصات مؤلمة.

فتح الكيس وأخرج دجاجة محمرة وعدة أرغفة وليمون معصفر مغلفتين بورقة جريدة.

وضعهم فوق البطانية، ثم أشار إلى الشحات ليأكل، أدار رأسه ولم يرحب بالدعوة، فجذبه جابر من جلبابه بقوة:

-لا تعاندني.

انفجر ثانية فى البكاء، فربت على كتفه واحتواه بين يديه، ثم قال بحنان:

-الأكل ينادى صاحبه.

اعتدل ومدَّ يده وبدأ صوت المضغ والبلع يهيمنان على المكان الشحيح الإضاءة، القادمة من نافذة ضيقة تطل على المساكن.

قاما يغسلان أيديهما، ونادي جابر على المخبر ليصنع لهما شايًا، فصنع لنفسه أيضًا كوبًا وانضم إليهما، وجلسوا يشربون كأنهم فى المقهى.

أراد الشحات أن يدافع عن نفسه، ويحكى قصته منذ البداية، لكن جابر منعه بنظرة قاسية جعلته يبتلع لسانه.

لم يكن فى ذهنه الآن سوى ذلك الوقت الذى سيقضيه هنا، والغريب أنه لا يكره الشحات.

ضحك عاليًا حين اقتربت من عينيه صورة جاد الله الممدد كالقتيل، وضحك جبر مجاملة له، ثم أراد أن يحكى قصة البومة كشاهد عيان، ليجعل كلا منهما يفضى بما لديه ويستريحا.

استحضر بداية الموقف، وكيف اقترح كتكوتا مسمومًا، سوف يجعل جابر يقهقه من هذا الاقتراح.

تراجع الكلام مذعورًا، لأنه اعتزم أن يذكر تحول البومة إلى صورة ولاء، استعاد ذاكرته فجأة وأغلق شفتيه.

زجر الشحات:

-تكلّم، هل ابتلعت عجينا فى زورك؟

خرجت من فمه عدة أصوات غريبة، وعاد يغلق عينيه، بينما نظر جابر ناحية السقف، وبدا ذاهلاً عما يحدث، ولم يبقَ إلا أن يتساءل:

لماذا أنا هنا ؟

-وأين صديقي المقدم حلمى؟

سأل جبر بصوت خفيض ناعس:

-أين المقدم ؟

هز رأسه وقال ببلادة:

-لا أدرى

نظر ثانية إلى السقف، لكن جبر نقل الدفة إلى اتجاه آخر، فقال ضاحكا وهو يخرج سيجارة دون أن يعزم على السجينين غير المدخنين:

-المغازى هذا، لص، وسوف يجعلني ذات مرة أضربه بالنار

عندما سمع صوت أحد العساكر ينادى عليه توقف، وطلب منه الحضور فأصبحوا أربعة.

هبت من النافذة نسمة تبشر بالبرد فلسعتهم وجعلتهم يتذكرون ملابس الشتاء، الذى سينقذهم من لهيب الصيف الطويل.

جلس العسكري أبو زيد ووجد جبر الفرصة ليسهب فى عيوب المغازى حيث غشه فى عقار وصفه بالمعجزة.

أيده أبو زيد وبدأ يتحدث عن مغامرات الصيدلى،

لكن جبر أشار له بعينه فغير الموضوع.

لم ييأس جبر من عزلة جابر، فحكي قصة الرجل الذى خلع عمود الدار واسقط السقف على الأطفال وأمهم، مما جعلهم كالعصيدة.

قطب جابر جبينه، وشعر بحنق هائل،

ورغم أنه كان طفلا عند وقوع الحادثة، فقد تمنى لو عاش أيامها ليقطع من لحم هذا الكلب، تسلم ابو زيد الخيط وحكي عن كلب كان يتكلم فى قريته، هنا صرخ فيه جابر فبهت وهب واقفًا،

بعد ذلك لم يتكلم جبر سوى كلمات قليلة، وضغط زر الكهرباء فظهرت تفاصيل الحجرة الفسيحة.

***

فى التاسعة صباحًا دخل المقدم النقطة بطيئا لم ينم سوى سويعات، وقد وضع يده اليمنى على ظهره، و تقلص فمه وعامت عيناه.

سمع جابر الذى استيقظ فجرا فصلى، صوت الحراس ينادون بالتحية.

كان الشحات ممددا كالميت، ولم يحاول أن يوقظه، وتركه يصدر من حنجرته صوتا كأنه الخوار.

جلس الضابط فى مكتبه، واستدعاه بعد قليل فدخل وحياه باحترام.

أشار له بالجلوس، ثم طلب كوبين من الشاى، وجد قلب ثريا هانم يتقدم ليقوده، فطرده بكل ما أوتى من قوة وقال بحدة:

-لست أنا الذى أسمح بالقلاقل، كفاك ما فعلت من قبل

لم ينطق بكلمة، وبدأ ذهنه يجهز خطة قتل ولاء، من الأفضل أن يأتى هنا جثة، بدلاً من مواجهة رد فعل غير متوقعة.

ربما عذبه بالتعليق فى حديدة السقف، وترك العساكر يمزقون لحمه بالسياط.

أراد أن يسأل الشحات، كيف سأقتل زوجة أخي وأسجن، أو ربما أعدم، ثم تشيع على لسان البومة أنني سأصبح زعيمًا ؟

لم يسعفه لسانه، ونسى تمامًا ما كان يفكر فيه، عندما التقطت أذناه صوتًا كان ينتحب فى الخارج، أنه صوت شهد !

لم يفلح فى معرفة ما تقول، لكنه غضب لأنها خرجت من بيتها، وجاءت وحدها تحوم حول النقطة.

هل يتجاهل المقدم، فيتسلق الجدار ويصرخ فيها تلك الصرخة التى تعرفها، وتتجمد منها كقطعة ثلج ساكنة ؟

اختفى الصوت بعد قليل، وهز رأسه ليطرد الوساوس.

عاد المقدم يقول:

-لن أستخدم الإجراءات الرسمية، وعليك أن تفكر كثيرًا فيما بعد

أشار للعسكري الواقف أن يحضر الشحات، فأتى به يجره، وأجلسه على مقعد بعيد

واجهه المقدم وقال له آمرًا:

-اتصل بابنك، واجعله يحضر الكتاب فورًا.

لن أنساق وراء الأحلام المزعجة، ولن أعيده اليه كما فعلت من قبل.

سوف أضعه فى خزينة النقطة، ولن أسمح بالكلام عنه.

-اسمع، لو جرؤت على اثارة موضوعات البومة، سوف أرسلك إلى المعتقل

لم تمض دقائق حتى جاء ابن الشحات على دراجة بخارية، وقدم الكتاب موضوعا داخل كيس وسادة، فتح المقدم الخزينة وأشار له فوضعه فيها ثم أغلقت.

قال للشاب:

-خذ أباك وانصرف، وهذه هى المرة الأخيرة

قبل أن يتحرك خارجا قال وهو يتأهب للبكاء:

-لن انطق بكلمة، ولكن يوم الانتخاب قريب، وحين يتحقق ما قلته، سأحضر وأستعيد كتابى.

تململ جابر وكاد يطيح بمقعده ويهجم عليه، لكن نظرات المقدم جعلته يلزم مكانه.

خـرج الشـحات ببـطء، وضغـط المقـدم عـلى قلـب أمـه وقـال لجابـر:

-تفضل، لديَّ عمل

عندمـا اقـترب مـن البوابـة كاد يصطـدم بشـقيقه جـاد الله، الـذى حـاد عـن طريقـه بسرعـة فائقـة،

وتراجع مهرولاً ثم التصق بجدار ودخل مسرعًا إلى النقطة.

***

كان جـاد الله يعـرج وقـد اشـتعل جسـده ألمـا، جلـس بصعوبـة ثـم تـأوه وقـال للمقـدم حلمـى:

-جئت أقدم بلاغًا فى جابر شعبان.

ضربنـي وأصابنـي بكدمـات خطـيرة، وأطلـب تحويـلي إلى المستشـفى

وقف الضابط ثم جلس ثانية، وقال بهدوء:

-إنـه شـقيقك، وكـم انصـاع لـك كالطفـل، ربـما أفلتـت أعصابـه هـذه المـرة

-إنـه لايخشـى أحـدًا، وربـما سـاعده تسـاهلكم معـه، كيـف يخـرج بعـد أن ربـط رجـلا فى شـجرة وضربنـي بـكل قسـوة؟

-إننى أدير الأمور بحكمة، القرية كلها أهل

-أنا مصر على البلاغ والإجراءات الرسمية

لا يعرف لم اهتاج فجأة وضاعف الألم من هياجه

فلم يعد يسيطر على أفعاله، واستخرجت يده رغما عنه الشكوى المقدمة من البوهى، ضد ولاء والمغازى، ثم أعطاها لجاد الله وهو يقول:

-لو كنت من هواة الإجراءات الرسمية لحققت فى هذه

قرأها فى لحظات ثم أعادها وقال:

-هذا محض افتراء، إننى أثق فى زوجتي وفى صديقي المغازى

-لست أنا الذى اخترع القصة.

-كم من القصص تجرى على الألسنة بلا أدلة، حضرتك تعرف القرى وما يجرى فيها، شرشيرة على الأخص مليئة بظلال القتلى الذين يلقون فى عقول الناس ضلالاتهم.

نبع العرق تحت القميص وجرى فى ظهره، تذكر ما قرأه فى قضية الخفير الذى هدم السقف على الأطفال وأمهم، وأعتقد أنهم من ينغصون عليه حياته ويملؤون لياليه بالأحلام القاتلة، تماسك فى النهاية وواجهه قائلاً:

-إذا كنت مصممًا، فلنحقق فى البلاغين.

قام بصعوبة وهمس:

-سأكون أكثر عناية ببيتي

قابله هواء بارد، ولمة أطفال يصرخون، مَرَّ من وسطهم وهو يسند ساقه اليمنى بيده. من تظنني أيها الضابط ؟

مالك السكرى الذى أفنى عشرات من أجل خمارته كريمة، إننى أجلس مع أولاده وأقاربه، لكننى لست منهم !

دخلت مقبرته آخر الليل ولدى تلبيسات أسنانه الذهبية، وأصبحت مطهر قرى ومدن وسنبدأ العمل.

أراد أن يحتضن المارة ويشكرهم على احترام مشاعره.

كم أنتم طيبون يا أهل شرشيرة، أعرف الآن أنكم ولغتم فى دم ولاء بسبب الظلال وأشجار الحنظل، لكنكم فى النهاية لم تسمحوا لألسنتكم أن تقذفنى بكلمة واحدة.

لن أتخلى عنكم ما دمت أستطيع علاجكم.

خامرته فكرة شرسة،

لماذا لا يعود إلى عمله بالوحدة المحلية ويشكر كل زملائه، حيث لم يضعفوا لحظة ويلقوا فى وجهه كلاما كريها ؟

بعد أن ينتهي عليه أن يبحث عن جابر، حتى لو كان نائمًا فليوقظه ويقبله، أنت ملاك يا ابن أبى،

كنت أسحبك وأهينك، ما من مرة لجأت لهذا السلاح، حتى عندما فقدت ثباتك، ضربتني وسببتني، لكنك لم تشر مجرد إشارة إلى ولاء.

اطمئنوا ولا تقلقوا من أجلى، فقد صك الخبر أذني من شخص غريب، ليس من شرشيرة العزيزة.

أشكره أيضًا، لأنه غريب واحتملني كل هذا الوقت، سوف أتدبر الأمر أيها الأعزاء .

***

كان المغازى الصيدلى أول من علم بقصة البلاغ وعرضه على جاد الله والتحفظ على ولاء فى البيت.

هبّ واقفًا ورمش عدة رمشات ودق دماغه بصداع مفاجئ، صار شيئًا لا يحس ولا يفكر، تعطلت حواسه التى تدبر جسده.

وعاد يجلس كالحطام، بينما جبر يبتسم ببلاده، ويمد يده.

لم يتجاوب معه ولم يجد المخبر بُدًا من تنبيهه بالإشارة، فتحرّك ببطء وأحضر له عدة أقراص ثم استلقى دقيقة.

ولّما أدرك أنه لن يستطيع التعامل مع أحد، أغلق الصيدلية وصعد درجة درجة ليرتمي على السرير وقد

نضجت فى ذهنه تمامًا فكرة التخلى عن الصيدلية، ورآها الناس فى اليوم التالي مغلقة لأول مرة، وقد علقت على واجهتها لافتة تقول: الصيدلية للبيع.

بينما اتجه جبر إلى الجسر، وبدأ بمحمدي الذى زجره عندما سرحت يده تنتقى أفضل السمك، زعق فى وجهه:

-ستظل تأكل حرامًا حتى تشتعل بطنك نارًا.

لم يكن ذلك ليطرف له جفن، دائمًا يردد أنه لابد للأعين الساهرة أن تنعم ببعض المزايا.

استمر فى جس البلطي والبوري واتجه ناحية وعاء القراميط، فجذبه محمدي زاعقا:

قلت مائة مرة، نوع واحد فقط

قطّب جبينه وقدم له ما اختاره من البلطي الأخضر الحي، فلفه فى ورق الشكائر وهو ينفث غيظه، قال له جبر هامسًا:

- سأخبرك بأمر ينسيك البلطي، لقد عرض المقدم بلاغ البوهى على جاد الله، وهو منذ ثلاثة أيام لا يسهر ولا تستطيع ولاء الخروج

كاد الآن يفهم هذا الارتباك العام الذى ظهر فى تصرفات الكثيرين.

مــن كان يصــدق أن موســى الصائــم يأتيــه مفرجًــا عــن مقعــده، ليســأله عــما قالــه جــبر، لم يحــدث ذلــك مــن قبــل، وكان محمـدى يتصـور أن يسـير إليـه المطـب الخرسـانى، قبـل أن يتســلل موســى مــن خلفــه.

نظــر إلى عينيــه، كانتــا مجنونتــين، تتجــولان عــلى مداخــل الشــوارع الثلاثــة الكبــيرة، قــال لــه بــلا اهتــمام:

لا شئ سوى الخسارة

كلنا يخسر من أجله، لكنه يؤدى الثمن أخبارًا خطيرة

وما الذى يشغلك يا صائم ؟ منذ متى تهتم بأخبار شرشيره

شــعر أنــه تــسرع، وعــاد بســاقيه القصيرتــين إلى مكانــه وحــاول أن يرســل عينيــه إلى الحقــول، فلــم يفلــح.

هل تخدعنا طول الوقت أيها الجزار الدسوقي ؟

متى وكيف تقابل ولاء ؟

هذه قرية مسحورة. اتجه إلى موسى وهمس في أذنه:

إنها محبوسة في البيت

احمرت أذناه وهز رأسه كما تهتز الذبيحة المعلقة وقال بجفاء:

ماذا يعنيني ؟

لم تمض دقائق حتى وصل مدير شركة البنجر، أوقف السيارة وتأمل السمك، وقف محمدي متأهبا فقال له بلا حماس:

كيلو بوري

كيلو فقط؟

الأولاد في القاهرة

بدأ ينتقى ويغلف، ثم وزن ووضعه في

حقيبة السيارة.

منحه بسخاء، وظل واقفا بتململ، والتقت عيناه بعيني موسى الذي قام ودخل يعبث بالثلاجة.

منع محمدى ابتسامة قفزت على شفتيه . نظر المدير حوله في حيرة، ثم هم بالركوب، فأغلق له محمدي الباب وهو يقول بصوت خفيض:

شرفتنا يا سعادة الوزير

لم تطعه الابتسامة ليجامله بها، أحنى رأسه ثم انطلق.

سعد رزق رئيس القرية لم يكن في حاجة للسؤال، فالمخبر يقدم له الأخبار كاملة قبل أن يتاجر بها لدى الباعة .

لقد أصيب بالصداع منذ الأمس، ولم يعد إلى شرشيرة من الطريق الخلفي، فلن يجدها في انتظاره على طريق القناة المظلم .

لم يعد قادرا على إدارة العمل الشديد الوطأة، واهتاجت أعصابه تمامًا عندما رأى جاد الله، لا يعرف ماذا قال له،

لكنه عندما أنتزع نفسه من الجو المقبض وقاد سيارته عبر الطريق الدولي بلا هدف، جعله الهواء المنعش الداخل من النافذة يتذكر أنه سبه واتهمه بالإهمال وهدده بالنقل.

فى مقهى الصيادين، كان الزقلوط لا يكف عن تنبيه هاتف ولاء النائم، وقد أحاط به شباب وغلمان وشيوخ.

رأى سميح صاحب المقهى وجوها جديدة من عزبة معاطى ومن دسوق ومن القرى المختبئة فى براري البحيرة، وجوه أخرجها الجوع من مكامنها، وعيون مترعة بالغيظ والكمد.

سمع سميح من جبر ومنحه عددًا لا يحصى

من أكواب الشاي، ليسهب في ردة فعل جاد الله

حين قرأ بلاغ البوهى، وظل ساهرًا معه وحدهما فى المقهى حتى أذّن الفجر.

***

استيقظ المقدم حلمى فجرا على نار مستعرة فى ظهره، فتح فمه ليصرخ لكنه ابتلع الصرخة، زحف ليجلس فى الصالة، فجأة لم يشعر بساقيه وسقط على أرض الحجرة بحجمه الضخم.

كان يستعد لتفقد قوات الأمن التى وصلت فجرًا قُبيل الانتخابات، وكان يفكر فى تلك القرية الموعودة بالفتن.

استيقظت زوجته على جلبة السقوط وضغطت زر الكهرباء، كان يبكى ويهتز وحين التقت عيناه بعينيها قال بصوت كسير:

لقد أصبت بالشلل

جلست بجواره تنوح، وخرجت بملابس البيت تنادى حارس المنزل.

فى الوقت القصير الذي استغرقه احضار الطبيب، أيقظت الزوجة ابنتها، رغم إشارات الاعتراض من يديه.

هبت الفتاة الرقيقة مذعورة وارتمت على أبيها الذى بكى معها بصوت عال.

خلصتها أمها بصعوبة، ولم يستغرق الفحص طويلاً، همس الطبيب للسيدة التي سارت معه حتى نهاية الصالة:

أشـك في ورم يضغـط عـلى العمـود الفقـري، ولا بـد مـن نقلـه إلى المستشـفى

عـادت بوجـه ملبـد بالخوف والجـزع، ووضـع المقـدم حلمي ذراعـه حـول خـصر نسـمه ورسـم بصعوبـة ابتسـامة مكـدودة.

فهم كل شئ، ولم يلم نفسه للإهمال فى العلاج. . لماذا

لم يخبره الشحات عن هذا ؟

هـل تكـون الظـلال الحزينـة التـى حدثـه عنهـا جـاد الله هـى السـبب ؟

ليـت الأمـر يتوقـف عنـد مرضـه أو حتـى موتـه، أنـه يقبـل بـكل رضـا أن يفـدى قـرة عينـه.

علمـت شرشـيرة كلهـا بـما حـدث، وتجمـع النـاس أمـام البيـت، لكـن الحـراس رفضـوا السـماح لأي منهـم بالدخـول.

اللافـت ان مـن بينهـم نسـاء كثـيرات جئـن باكيـات، ووقفن بـلا ملـل كمسـاندة للسـيدة المسـكينة فى الداخل،

هـذا رغـم أنهـم لم يروهـا وجهًـا لوجـه، بـل ربـما لمحوهـا مـرات قليلـة حـين تسـافر أو تعـود،

تمنـين فى أعماقهـن لـو دعتهـن لزيارتهـا ودعونهـا أيضًـا لـترى كيـف يعيشـون، ومـن ثـم يتحدثـن ويونسـنها فى الغربـة .

لم يقلل ذلك البعد من حزنهن أبدًا، وظللن أمام الباب آملين أن يسمح لهن بالدخول، ومعانقتها والجلوس معها في هذه المحنة.

عندما جاء جابر اشتبك توا معهم ورفع صوته، ودخل جبر يستأذن فأشار له المقدم بالموافقة.

استسلم جابر للبكاء وارتعش، وأهوى إلى رأسه وملابسه يقبلهم، ثم جلس على الأرض يتنفس بصعوبة.

ابتسم المقدم وقال له:

أهكذا تشجعني أيها القوى؟

ارتفع بكاء بسمه وأمها، لكن الأب تمالك نفسه وقال:

لن أموت بسهولة، سأذهب إلى المستشفى فى طنطا، وسأشفى وأعود-

كان جابر يدرك أنه الوداع، وأحس بغصة الفقد التى داهمته عند وفاة أبيه، وتقلبت فى عقله الصور منذ قابل المقدم، وكما يحدث له دائمًا عند تعرضه للمصاعب، قرَّر الآن وبعيدا عن مرض صديقه وبكاء أسرته، أن ينفذ خطته لقتل ولاء، ثم ينحر نفسه بلا تردد.

لاشك أن شرشيرة لن تكون مكانا يصلح للإقامة، رفرف قلبه من أجل أطفاله، لكنه قال لنفسه وهو لايزال يبكى بحرقة:

لقد تركني أبى طفلاً.

الشحات لم يجرؤ على الذهاب والدخول وسط الزحام، رغم أن قلبه امتلأ

غما من أجل المقدم الطيب،

لوكان رئيس النقطة ضابطا آخر غيره، لأهانه أبلغ إهانة، ولأرسله إلى المعتقل منذ البداية.

لماذا لم يرد ذلك الهول فى الطوالع ؟

ولماذا لم يتأخر قليلاً حتى يمر يوم الانتخابات ؟

تأكد أن حديث الليلة عن مرض المقدم، لن يخلو من الإشارة إليه، وسيجعلونه دليلا جديدا على كذبه وتلفيقه.

هذه البومة إلى أين تقودني ؟

فى الوقت الذي احتجتها لأستفسر عن ألغاز كثيرة، ذهبت لتغازل القبلاوى وتمنحه بقية الأسماء !

ماذا يمكنهم أن يفعلوا أبى إذا مر يوم الانتخاب بسلام؟

أراد أن يطمئن نفسه:

- مجرد أقوال ثقيلة وجارحة ثم ينسون

راودته فكرة الضرب حتى الموت، أو إحراق البيت بمن فيه، لكنه استعاد شعوره بالأمان،

شرشيره ودعت القتل إلى الأبد، وستظل جريمة سكينة مجرد قصة تروى، الجميع ذاقوا اليتم والثكل والترمل ورأوا الدماء تملأ المساقى، لن يقتلني أحد، حتى جابر القوى عجز عن القتل ويتراجع في اللحظات الأخيرة.

لكن حياتي هنا ستكون كالحياة في جهنم.

لا بأس من تغيير الإقامة، فأرض الله واسعة.

كانت زوجة الضابط تسيطر على ساقيها بالكاد، وتحاول المحافظة على صوتها خاليًا من النشيج.

لابد لها أن تكون امرأة قوية، تجهز الحقائب وتجمع الأغراض ولا تنسى استدعاء نجار ليجهز الأثاث للنقل، وتنأى بعينيها مؤقتا عن زوجها الصامت وابنتها الذابلة المنكفئة على ساقيه الميتتين، وأن تلبى أوامر الزوج العاجز، حتى لو طلب منها أن تخرج لتقابل القوات التى امتلأت بها البلدة قبيل الانتخابات.

سوف يمكنها أن تتماسك وتبتسم وتحييهم، وتعتذر نيابة عنه.

لن تخبرهم أنه فقد حيوية ساقيه لأنه تكاسل ولم يستجب لنذير الألم.

هاتفت شقيقه بكلمات قليلة حوت ما جرى، وطلبت منه أن يحضر سيارة نقل وأخرى أجرة، وأن يكون فى شرشيرة قبل العصر.

ستعود إلى شقتها فى طنطا بالعليل، لن يأخذهما في نزهة بعد ذلك، ولن يتحدث مع صورة أمه فى الصالة ويعابثها بقوله:

قلبك الرقيق أرهقني

سيرقد فى سريره مهيضًا، وستظل ابتسامته باهتة يجاملها بها.

***

وقف جابر فى الصالة يناول ثلاثة رجال ممن اختارهم، قطع الأثاث التي فزعت عندما انتزعت من أماكنها، ولدى خروج القطعة الأولى غلبت الدموع معظم الواقفين، لكنهم تماسكوا ليطردوا الفأل السيئ.

جاء رئيس القرية متكاسلاً، ووقف بعيدا يحدق فى الفضاء. من الضروري أن يكون موجودًا، لكنه لم يكن

صديقه في يوم من الأيام، ربما يرجع ذلك إلى صراع مكتوم بينهما على القيادة.

كان المقدم فى المناسبات القليلة التي يقابله فيها، يخترق ملابسه بعينيه، كأنه يقول له: لا تحاول خداعي، إننى أسمع كل حركة، وقد هتكت منذ وقت طويل سرك الذي يجعلك تغامر في الظلام والوحشة.

الآن وصل مأمور مركز دسوق، وأوسع له الناس، فدخل مسرعًا وهبط على ركبتيه مؤديًّا التحية العسكرية لرئيس النقطة.

أزف الوقت الصعب إلى يحمل فيه المقدم إلى السيارة حيث سبقته إليها الزوجة والابنة التى صار وجهها باهتا كالموتى، وعيناها تحوّلتا إلى حفرتين من دم. أمَّا الأم فلا زالت تقاوم، وقد انتزعها شقيق زوجها من أحضان نساء باكيات لا تعرفهن.

لم يتردد جابر القوى فى حمل صديقه،

كما حمل من قبل المشدوخين تحت المئذنة، والشيخ سعد السكرى المفقود الخصيتين،

شعر بقلبه يختلج، وكادت ذراعاه تتصلبان، لكنه استطاع أن يصل به إلى السيارة ويضعه برفق في مقعده، ثم ينحني

ويقبله، فيبتسم له بصعوبة. أشار إليه رئيس القرية من بعيد فتجاهله،

قبل أن يغلق باب السيارة احتوى المقدم أهل القرية بعينيه، وفوجئ أن سكينة ابنة الحدايدة التي يحفظ تفاصيل صورتها، تقف بين المودعين وتمسح دموعًا بطرف طرحتها.

دهش لأن أحدًا لا ينكر وقوفها ولا ينظر نحوها،

وعندما تحركت السيارتان سمع بكاء قويًا، وأحنى رأسه حتى لا ينظر إلى أحد وضغط على ذراع ابنته ليتأكد من عودتها معه،

اقتحمت خياشيمه رائحة نفاذة، جعلته يرفع رأسه مرة أخرى، ويملأ رئتيه بها، لقد كانت رائحة البورى المشوى، فدامت في أنفه طويلاً، حتى بعد أن ابتعد كثيرا عن شرشيره.

***

خرج جابر يسير بلا هدف، تصعد مرارة شديدة من جوفه إلى فمه.

البلدة مليئة بالجنود ذوى الخوذ والأسلحة المشرعة.

لم يمهل المرض المقدم ليدير الانتخابات، كم تحدث وقلق من أجل هذا اليوم.

المقهى شبه فارغ، وسميح يبتسم للجنود المتجولين، لعلهم يعرجون عليه.

محمدى يرسل صفيرا منغما، صمت عندما رآه وأشار له محييا، تجاهله وجلس ثم طلب الحلبة، سرح فيما قاله الشحات عما سيحدث بعد الغد.

للمرة الأولى يشعر بالقلق، وينظر إلى البلدة بحسرة، ما لبث أن استعاد رباطة جأشه وقال لنفسه:

أنت مأزوم من أجل صديقك، سيمر الغد كما مرت مئات الأيام

كما يفاجئه عقله بالتفكير في أمور بعيدة، قدَّم له قرارًا جاهزًا،

لا تقتل ولاء في صخب الانتخابات.

من الأفضل أن تتأخر قليلاً، لتجهز عليها في ليلة هادئة ثم تنهى حياتك، إنها فعلة تستحق الانفراد.

سيذكره البعض بالخير، وسينحى عليه آخرون باللائمة وربما سبوه،

ما يقلقه أن يسمع بعد موته ما تسلقه به الألسنة وييكون عاجزًا عن الرد، فأدواته ذهبت إلى المقابر،

وربما يتسلل أخوه لينبشه ويحصل من جثته على أشياء مفيدة.

طاف بذهنه أن المقدم حلمى سيموت معه في نفس الليلة، وسوف يطيران معًا إلى جزيرة دشيمى.

قاوم ضحكة ماكرة، حين تذكر حب المقدم للبوري، وهمس لنفسه:

- الأرواح لا تأكل

سنعيش في وسط السكون المطبق،

وفى الليل نطفو فوق سطح البحيرة ونتحدث ونضحك على مسألة الصابونة، ونرى سكينة ابنة الحدايدة حتى لو كانت في آخر الدنيا.

عليه أن يجهز الساطور ويحتفظ به قبل أن تزدحم البلدة،

هب من مكانه ولم يسمع محمدي الذي مازحه.

كان موسى واقفًا ينظر إلى الأفق وقد تأخر عن الإغلاق، فنحن قبيل المغرب، عندما رآه يقترب جلس ثم قام ثانية، وصاح محمدي:

ارحم عينيك، البطة في القفص.

تنـاول السـاطور ووضعـه في كيـس ملقـى عـلى الأرض، وأشـار إلي موسـى بـه فهـز رأسـه وتحـرك عـدة خطـوات، ثـم عـاود الجلـوس.

***

استند جـاد الله إلى جـدار الشرفـة، وزفـر زفـرة طويلـة تحمل ضيقًـا عمـره أسـبوعًا قضـاه في البيت.

لم يتهـم نفسـه بالضعـف جـراء هـذه الحالـة، فالتعـود سـيد الإنسـان.

كيـف يغـير طباعـه التـي كـبرت وصنعـت جـذورًا سرحـت فى أعماقـه؟

إنه بلا أي مبالغة فقد صبره،

وبـدأ يبحـث عـن ذرائـع يلمحهـا تـتردد في داخلـه منـذ عاد مـن العمـل، كـي يفلـت مـن هـذا الصنـدوق المغلـق ويندفـع إلى قلـب الحيـاة الواسـع.

رفـض النـوم أن يقـترب منـه فـترة القيلولـة إلا مـن دقائـق رأى فيهـا ولاء ميتـة، ولم يشـأ أن يخـبر أحـدا حتـى يتسـلل إلى مخدعهـا، ويخلـع أسـنانها السـاحرة ثـم يجـز شـعرها الأصهـب.

جلس على السرير ثم خرج يستنشق الهواء البارد.

خرجت ولاء ووقفت بجواره وتفرست في عينيه فأدارهما بعيدًا.

كيف رضخت لكلام رخيص عن زوجتك ؟

أهكذا يتصرف المثقف القارئ، ألم تستسلم لرغبتك وتلزم بيتها ؟

هل شعرت بتبرم منها أو قلق ؟

تتحرك بهدوء وتخدمك وترضيك، تعطيك دفئا بلا نهاية، فكيف تكون امرأة ناضبة؟

انظر إلى ابتسامتها الراضية، ووقفتها الحميمة. ستصبح شرشيرة أفضل.

هبت عليه رائحة مندرة الحدايدة وأحاديثهم الممتدة حتى الفجر، انقطع الخيط فلم يعد يعرف أخبار جواسيس الحدايده الذين يتابعون تحركات الغرماء الباحثين عن سكينة.

يأتون كل ليلة ليقدموا تقريرًا أنها لا تزال بعيدة المنال، وأن السكاكره يسعون في الاتجاه الخاطئ.

حُرِم أيضًا من سماع التعليقات على مرض الضابط وتكهنات البديل، وعلى هؤلاء الجنود المتسكعين فى الشوارع، وعن الاستعداد ليوم الانتخابات الطويل.

وماذا عن سرك الخاص الذي أرهقت نفسك في القراءة والبحث والتأمل والزحف إلى قبر العمدة من أجله ؟

لقد زالت العقبة التي هددت المشروع برمته، وأرشدك المغازى إلى الثلاجة التي تحتفظ بالجثة صالحة لمدة عشرين عامًا.

هل تعود إلى المندرة تتحدث فى موضوعات لا تتغير، وتسيطر على المكان كراهية وخوف ؟

حتى هاتفك المتصل بالشبكة لم يعد مغريا، وتحول إلى شئ مقزز.

لابد أن تقسم وقتك على الأقل بين المندرة، وبين مكان آخر تبحث عنه وتؤجره، ثم تستقبل الشباب الذين يعانون الفراغ،

لتلتقطهم من شبكة التواصل، ولتفصح عن أحلامك.

سوف يحتاجون إلى تدريب تقوية القلوب، أصحبهم في آخر الليل إلى المدافن، ولا تتعجل قطف الثمار فتفسدها.

فاضت عيناه سرورًا، ونادي زوجته التي دخلت المطبخ، فجاءت تبتسم، قال لها كمن يلقى حملا من فوق كتفه: سأخرج.

اغتسل ثم تناول طعام العشاء وجلس قليلا يفكر فى الثلاجة الجبارة، فجأة قفز من مكانه وسمعت ولاء صوت قدميه تدقان الدرج، فأسرعت إلى هاتفها وفتحته، فاندفعت منه رنات محصورة ورسائل كانت متأهبة على بابه.

***

خطط أحمد القبلاوى لقضاء يومين في الخص المقام أقصى الحقل حتى تنتهى الانتخابات.

لا يحب الضوضاء التي احتلت القرية، كما أن رخصة بندقيته التركية انتهت منذ شهر، ومنعه الكسل من تجديدها.

وهكذا لا يمكنه السير فخورا بحملها على كتفه قاطعًا الجسر حتى نهايته، ثم داخلاً فى شارع الصيدلية حتى ينعطف يسارًا بعد نحو مائة خطوة ليدخل بيته فى حى الفلاحين .

لو استوقفه أحد الجنود الغرباء، فسوف تصادر وربما يتعرض للحبس،

لم يعد هناك المقدم حلمى ليطلق سراحه ويقول له ببساطة:

قدم طلب تجديد

ثم يطلب منه اصطياد الأغربة التى تزعجه، ويجلس ليراقبه مبتسمًا ويتبادل معه الحديث كصديق.

الإقامة فى الحقل ممتعة، تملأ قلبه طمأنينة وسعادة، سوف يقضى الليل يتأمل النجوم وهى تتابع فى الظهور، يعرف أسماءها ومواقعها وأوقات ظهورها وأفولها،

طرد فكرة صيد الذئب الذى يفسد نومه بعوائه، كان قد صمم على قنصه الليلة وطهو كبده على النار،

فمنذ وقت طويل لم يأكل مثل هذا الطعام الفاخر الذى سمع منذ صغره، أنه يورث جرأة فائقة.

الشمس هبطت وراء النخيل، فجلس في الجرن وأشعل سيجارة، وتخيل شرشيرة في اليوم التالي للانتخابات،

وقد سقط فيها أحباب وأقارب، وكاد يسمع أصوات استغاثة من بعيد.

هناك في نهاية الطريق تجثم القرية متلاصقة البيوت، وتشمخ وسطها سبابتها التي تشير إلى الله.

لديه شجرتا رمان على الحدود مع جيرانه من عزبة معاطى، قام إليهما وقطف رمانة كبيرة، وعاد إلى مجلسه بجوار الخص.

أخـرج المطـواة مـن حافظتـه وبـدأ يقـشر الثمـرة ويسـتمتع برائحتهـا الحلـوة، خلايـا أنفـه انقبضـت وتلـذذت فتنفـس بعمـق وتابـع الرجـال العائديـن ببهائمهـم ورد عـلى تحاياهـم الخافتـة.

عليـه أن يشـعل كومـة مـن حطـب الـذره ويصنـع شـايًا، ثـم يجلـس في ضوئهـا ودفئهـا، خاصـة أن الجـو يكـون بـاردًا في الخـلاء قبيـل الخريـف.

بعـد دقائـق أشـعل النـار فأضـاءت الجـرن ومـا حولـه، وتابـع آخـر العصافـير التـي اختفـت وراء أوراق الأشـجار، وارتفعـت زقزقاتهـا قليـلاً، ثـم هـدأت تمامًـا.

كوب الشاى ضبط دماغه، وأمسك البندقية يقلبها بين يديه،

رفـع رأسـه عندمـا سـمع صوتـا يعرفـه فـوق الكافـورة، لم يـر البومـة بـل أصـم صياحهـا فقـط أذنيـه. شـحذ لسـانه يسـبها، ثـم قـرر أن ينـصرف تمامًـا عـن التفكـير فيهـا.

ظلـت تصفـق بجناحيهـا وتطـير فـوق الجـرن، ثـم تعـود إلى الكافـورة وتـصرخ دون أن تظهـر. مـا ضاعـف اهتيـاج أعصابـه أنهـا لا تأبـه لبندقيتـه ولا تخشـى تصويبـه، وربـما لـو رفعهـا سـتضحك وتسـخر حنـى ينفجـر غـمًا.

خاطبها بكل شجاعة:

اسمعى، أنا لا أخافك، ولا تعجبنى تحولاتك

ردت عليه بضحك متواصل، ثم سمعها تهدد :

- من الأفضل لك أن تعود إلى رشدك، وتنتظرنى غدًا لنبدأ جلستنا الأولى

ساد الصمت، ورفض أن يرد عليها، ثم قام يلقى مزيدًا من الحطب فى النار حتى ارتفعت وأظهرت الحقول والأشجار النائمة.

ملأ الغضب دمه وانتشر إلى كل أعضائه، صمم أن يقضى ليلته دون اهتمام بها، لكنه بعد دقائق قال لنفسه:

-ربما دفعها الغيظ أن تؤذينى، وليس من الشجاعة منازلة عدو مجهول

فكر طويلا فيما قاله الشحات لها فوق حطام المئذنة، ربما كان يعرفها من قبل ويخدمها، إنه أفاك قد يقبل التلفظ بعبارات التجديف من أجل مصلحته، وقد خدع الناس بما ردده عن موضوع مقتل الحسين وعن العلاج المستخرج من جوارحها. . ملأ الدلو من المصرف عدة مرات وأخمد النار، ثم اندفع يجرى، بينما اضطربت بطنه بشدة لا تقارن

بما فعلته يوم المئذنة. احتاج إلى إفراغ محتوياتها لكنه لن يتوقف، حتى لو نزلت تلك المحتويات فى سروالة ومنه إلى الأرض.

تجرى بندقيته أيضًا على كتفه، نسى أن يضغط زر البطارية وخب فى الظلام معتمدًا على معرفته بتفاصيل الطريق،

تعالت أنفاسه بما يوحى أن قلبه يقرع ضربات متتابعة مذعورة.

نسى تمامًا أن ترخيص صديقته التركية قد انتهى، وأنه لا محالة واقع فى أيدى الجنود،

بعد أن قطع شوطا لا بأس به نظر خلفه بلا وعى، كان جرنه مغطى بالعتمة.

ظل يجرى مبهور الأنفاس، يردد آيات الاطمئنان والاستعاذة، حتى ظهرت الأضواء واضحة على المئذنة.

هاهى شرشيره أمامه فليطمئن، وليلقى بجسده على حائط الكوبري.

لا أثر لجندى واحد ممن كانوا يتخذون الحائط مجلسًا يراقبون منه القادمين والمغادرين.

قبل أن يلتقط أنفاسه ويشعر بالبلل والنشع ،سمع أصوات مختلطة تنبعث من مكبر الصوت المعلق فوق المئذنة، وبعد قليل أذيع منه ما يلي:

أهالي شرشيرة الكرام

جاءنا من الوحدة المحلية أن انتخابات مجلس الشعب، والتي كان مُقررًا لها أن تجرى غدًا، قد أُجِلت إلى أجل غير مسمى.

***

الكنزي
ALKANZY